طريق أصلان

الكتاب: طريق أصلان
المؤلف: محمود وهبة
تصميم الغلاف: أحمد وهبة
تدقيق لغوي: هدير جودة
رقم الإيداع: 2019/26985
الترقيم الدولي: 978-977-778-195-4

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

محمود وهبة

طريق أصلان

رواية

نون للنشر والتوزيع

إهداء

"هنا وفقط هنا أستطيع أن أبوح بذلك الصخب الذي أحمله داخل عقلي، أعجز عن التحدث لفترة طويلة وأخجل من الحضور الكبير فتسقط مني التعبيرات والمقصودات تباعًا إما هنا، هنا عالمي فمرحبًا بك داخل عقلي".

(مقدمة)

"مصنع مهجور يقبع ساكنًا وسط صحراء موحشة، الليل يَلقي بظلامه فوق كل شيء ويحيل النفوس إلى كائنات ضعيفة خائفة في تربص قاتل، يتقدم شاب في تأهب إلى داخل المصنع، ممسك بسلاح ناري بيده اليمنى وفي اليد الأخرى كشاف يحاول اختراق تلك الكتلة السوداء في الداخل، خطوات بطيئة متتالية من الشاب ليجد نفسه أسفل حذائين متدلي جسد صاحبهما من سقف ذلك المصنع، يرتعد ويوجه كشافه إلى أعلى ليجد جثمَّان أحدهم قد تم شنقه بجنزير حديدي التف حول عنقه محطمًا عظامه في قسوة، عينان حمراوان ككاسات الدم ووجه أزرق متحجر كانا مؤشران واضحان على شدة ما عاناه قبل مفارقة روحه التعيسة الحياة من بين ضلوعه المهشمة، تحرك خطوة أخرى للأمام ليتعثر في صندوق خشبي موضوع على الأرض وقد كتب عليه بخطٍ كبير متعرج (الشياطين الحقيقين جوه الصندوق ده، إنما المتعلق ده كان حد من أتباعهم، وخليك عارف إن المهمة مش سهلة)".

(1)

"ستار أسود عملاق، يفصل ما بين الحقيقة والزيف، الكواليس أصبحت مزدحمة عمَّا كانت عليه من قبل، الكثير دخلوا إلى تلك المسرحية والكل يؤدي دوره باقتدار، والغريب في الأمر أن ما زال هناك من يجلس ويشاهد مصدقًا لكل ذلك العبث، هؤلاء هم الضحايا دائما".

في أحد الأحياء الشعبية القديمة والمتواجدة تحت خط الفقر وفي منتصف دائرة الظلم بالقرب من شارع ضيق ووسط ذلك الازدحام الخانق ومن بين كل هؤلاء القانتون من الحياة هناك يدان متشابكتان، أحداهما صغيرة ناعمة الملمس ما زالت تحتفظ ببرائتها الفطرية والأخرى كبيرة تحتوي الأخرى بداخلها في حنان ولكن بها من الخشونة ما يفوق الشوك ورغم قسوتها إلا إنها ما زالت تحتفظ ببرائتها هي الأخرى، اليد الناعمة تعود إلى فتاة صغيرة جميلة المظهر تسير بجانب أبيها الذي تشبهه هي تمامًا في كل شيء، في نظراته، في ابتسامته الهادئة، في طريقة سيرة، تحاول تقليده في كل شيء حتَّى في كلامه، تنظر له في فخر وينظر لها في أمل.

بعد لحظات من سيرهما رفعها إلى صدره خوفًا على قدماها الضئيلتين من التعب والإرهاق وسار بها وهو يحدثها عن أنها أغلى ما يملك وأنها أكثر مِمَّا تمناه هو بكثير، أخبرها أنه أصبح يعلم الآن الغاية من خلقه في تلك الدنيا وهي أن يحافظ عليها ويلبي لها كل ما تريد ويجعلها سعيدة وفخورة به، أخبرها أنه هنا من أجلها وسيكون دائمًا وسيحافظ عليها مهما كلفة الأمر من ألم وتعب وتضحية، أخبرها بكل ما في قلبه الصادق وصدقته هي بكل جوارحها البريئة.

توقف أمام منزل قديم الطراز أوشك على السقوط والزوال بكل ما يحمله من ذكريات وماضي متباينه بين السعادة والحزن رغم أن السعادة لا تزور ذلك المكان كثيرًا، تنهد ووضعها أرضا وتوجهوا مباشرة إلى السلالم الغير متناسقة صعودًا، بعد عدة درجات من السلالم ومعاناة تخطيها وصلا إلى باب شقة عتيق بشراع زجاجي

ينقصه قطعة قد استبدلوها بورق مُقوى، معلق أعلاه إضاءة قاربت على الاندثار كأشياء كثيرة اندثرت من قبل، طرقت الباب بكلتي يديها الدقيقتين وبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهرت من خلفة اِمرأة في عقدها السادس من العمر، ما إن رأت الصغيرة حتَّى تبسمت لها وعانقتها بجسد آلمه المرض والعجز وهي تقول:

- مريم!! حبيبة قلب تيتة.

ثمَّ نظرت إلى ذلك الشاب الذي وقف متبسمًا بحنانٍ لتلك المرأة فقالت:

- تعالى يا يوسف، ادخل يا حبيبي، وحشتوني، إية الغيبة الطويلة دي يا أصلان؟ إيش حال إننا ساكنين في نفس المنطقة ويفصل بينا حارتين.

دخل يوسف إلى المنزل وأغلق خلفه الباب بتروٍ خوفًا على ما تبقى منه ورفقًا بمفصلاته الصدئة وهويقول:

- أنا عارف إنى مقصر يا أمي، بس أنا والله بخلص شغلي كل يوم متأخر وبعدها أطلع على التاكسي بتاع الواد سيد أدور شوية بيه لحد ما الفجر يأذن وأرجع أنام كام ساعة وأعيد اليوم من الأول وبجيلك يوم أجازتي أهو وعمري ما قطعت يا أمي.

نظرت له في عتابٍ هين وهي تداعب تلك الطفلة الصغيرة في حنان وود كبيران ثمَّ قالت بعد أن تغيرت ملامح وجهها:

- أمال فين نور يا أصلان؟ مراتك مجتش معاك ليه؟ بقالي حبه مبشوفهاش.

ظهرت معالم الضيق على (يوسف) وقال مترددًا:

- نور يا أمي تعبانة شوية، عندها دور برد شديد، أصل اليومين دول عفره وتراب وهي عندها جيوب أنفيه ما أنتِ عارفه.

هزت الام رأسها بهدوء وقالت:

- عارفة يا حبيبي، ربنا يهديهالك يا ابني ويهدي سركم، خليها براحتها يا حبيبي، أنا كل اللي بتمناه من ربنا راحتك وإني أشوفك أنت والملاك دي في أحسن حال، وابقوا تعالوا كل ما تكونوا فاضيين، أنا قاعدة هنا يعني هروح فين، لحد ما ربنا يريد.

اِبتسم (يوسف) بفتور وشعر بضيقٍ ثمَّ اتجه إلى الشرفة كي يستنشق بعض الهواء ويترك (مريم) مع جدتها ليقضوا بعض الوقت معًا، فصاحبة الخمسة أعوام تمتلك أم متقلبة المزاج صعبة الميراث، لكنه يحبها ويتذكر أيامهم السعيدة القليلة والتي اِنتهت سريعًا بعد أن تدهورت أحواله المادية عندما اِحترق مخزنه وخسر كل أموالة المتمثلة في الكثير من الملابس وأصبح يعمل ليلًا يوصله بالنهار كي يعيد الأمور إلى نصابها لكن بلا جدوى، يبدو أن الأمور لن تعود إلى سابق عهدها أبدًا بينهم، لكن لا يهم فكل ما يريده هو أن تنعم (مريم) بحياة كريمة بين أبويها مهما كلفه ذلك الأمر من تعب وإرهاق وتضحيات.

***

في الظلام وبالقرب من مصنع قديم مهجور في أحد المناطق الصحراوية النائية يتحرك في اتجاهه شاب قوي البنية، أصلع الرأس ذو ملامح جامدة ونظرات حادة، عينان سوداوان يكسوهما الغضب، خطوات قصيرة واثقة، يدان مفتولًا العضلات أعدا جيدًا للبطش القاسي، جسد متناسق به الكثير من علامات الألم والذل وبداخله قلب أسود قاتم لا ينبض إلَّا بالكره والأذى.

اقترب ذلك الشاب من باب المصنع لينتفض من بداخله في خوف ويتأهبوا ممسكين بأسلحتهم النارية في اِتجاه الوافد من الخارج، يخفضون أسلحتهم فور رؤية وجهه الصارم ويسمحون له بالدخول بينهم ويتحركون خلفه حتَّى يستقر

جالسًا فوق كرسي حديدي متهالك ويقفون هم أمامه في خضوع كشيطان جلس للتو ليدلي بدلوه الأسود في جعبة اتباعه المخلصون.

بدأ صوته الرخيم بالخروج مرتفعًا ومنبهًا للجميع قائلًا:

- أنا عايز قبل ما الفجر يطلع علينا يكون عندي هنا 20 عيل، فاهمين؟ سرحوا رجالتكم واخلقولي العيال دي من تحت الأرض ومش عايز غلطة واحدة، الموضوع لازم يتم بنضافة وهدوء واللي هيغلط أو يرجع من غير المطلوب منه هبدله هو مكان العيل اللي ناقص زي معتز الصباغ، فاكرينه؟ واللي يتمسك يشيل شيلته أو بيته وعياله هيشيلوا مكانه وأنتوا عارفين أنا ممكن أعمل إيه في حريمكم وعيالكم.

نظر الجميع بعضهم إلى بعض بوجهٍ يعلوه الخوف، رسم الشاب شبح اِبتسامة على وجه يخفي خلفه نفس عليلة ثمَّ أكمل:

- يا رجالة إنتوا عارفين إن شغلانتنا مفيهاش هزار وأنا مقصدتش أخوفكم مني، أنا بس برسيكم عالدنيا بتاعتنا عامله إزاي، يلا اتحركوا.

تحرك الجميع مسرعين إلى خارج المصنع ثمَّ توقف أحدهم وعاد إلى ذلك الشاب أصلع الرأس وقال:

- أنا عايز أقولك حاجة يا حمزة باشا، ممكن؟

نظر له (حمزة) في غضبٍ وقال:

- قول يا شبل:

تلعثمَّ (شبل) في الكلام وهو يقول:

- أنا، أنا مش عايز أكمل في السكة دي يا ريس، أنا خايف، خايف من ربنا، خايف يحصل كدة لعيالي، أبوس إيدك سيبني أبطل وأتوب.

تلاقت العيون، أحدهما مشتعلة والأخرى ترتجف قطعهما صوت (شبل) قائلًا:

- ممكن تعتقني لوجه الله؟

لم ينزع (حمزة) عينه من عين (شبل) حتَّى بدأ جبينه في زرف العرق خوفا وقهرًا ثمَّ قال بهدوء قاتل:

- لأ مش ممكن، وهستناك أنت أول واحد ترجع هنا، فاهم يا شبل؟ وعلى الله ترجع من غير العيال، قال أتوب قال، أَلَّا قولي يا شبل أنت خبيت مراتك وعيالك فين؟ أقولك مش مهم أنت بردة من رجالتي وواجب عليا حمايتهم لو أنت حابب، روح يا شبل هات اللي أنا طلبته منك.

اِرتعد ذلك الشاب المنكسر من تلك النظرة التي وجدها في عين (حمزة) وذلك الكلام الذي يوحي بشر قابع داخل قلبه المظلم، أشار له في خوفٍ واضعًا يده فوق رأسة معظمًا له وهرول إلى خارج المصنع المهجور وهويلعن اليوم الذي تورط به مع ذلك المسخ.

بعد أن غادر الجميع وابتعدت أصوات درجاتهم النارية وسيارتهم اتجه (حمزة) إلى بابي المصنع العملاقين ثقيلا الوزن وأغلقهما عليه من الداخل بجنزير حديدي عملاق وقفل مماثل له في الحجم، خُطى خطوات باتجاه سلم مفقودًا بعضًا من درجاته، أزاح كل المعوقات المتناثرة عليه، توجه إلى الدور العلوي وأخرج مفتاح من جيبه ثمَّ فتح قفل موضوع على باب صدئ كان مخبأ خلف تل كبير من الأشياء القديمة المتهالكة، دفع الباب بقدمه ثمَّ أضاء النور لتظهر غرفة نظيفة مرتبه جيدًا وبها سرير مهندم وخزانة تحتل حائطًا بالكامل ومكتب صغير يحمل الكثير من الملفات والأوراق، دخل إلى الغرفة وأغلق خلفه الباب من الداخل ثمَّ نظر إلى تلفاز معلق أعلى الحائط المقابل للباب، تلفاز مقسمًا إلى الكثير من الشاشات الصغيرة التي تراقب كل مكان خارج وداخل المصنع عن طريق كاميرات موزعة في جميع الأنحاء ومخبأه بعناية، اتجه إلى بار صغير الحجم موضوع أعلاه

زجاجة (ويسكي) وكوب زجاجي، صب بعضًا منه وتجرعة دفعة واحدة، أغمض عينه فسمع صوت صراخ وبكاء أطفال ورأى الكثير من الدماء المتناثرة، فتح عينه في هدوء ثمَّ أخرج هاتف من جيبه وبحث عن رقم ثمَّ أَجرى اِتصال بأحدهم وعندما أجاب قال حمزة:

- باشا، كل حاجة ماشية تمام، ال20 عيل هيكونوا في المصنع قبل الفجر متخدرين وجاهزين تبعت رجالتك يخدوهم، باشا هما العيال دي عشان إية المرة دي؟ أعضاء ولا آثار؟

جاء الرد بصوتٍ مرتفعًا ينهره عبر سماعة الهاتف، ظهرت علامات الغضب على وجه (حمزة) الذي تمالك نفسه بصعوبةٍ ثمَّ قال بهدوء مصطنع:

- أنا مقصدش أتدخل في شغلك يا باشا، بس سيادتك مفهمني إني دراعك اليمين ودراعك اليمين محتاج يعرف اللعبة ماشية إزاي عشان يقدر يساعد ويفيد أكتر، ويبقى غطا وحماية وقت الخطر.

استمع بحرصٍ لما يقال واحتدت ملامحه وأخذ يضغط بأسنانه على شفتاه حتَّى أَدمت ثمَّ قال:

- أوامرك يا باشا أوامرك يا أكمل بيه.

أغلق المكالمة في غضب ثمَّ اتجه إلى مرآة موضوعة في أحد الأركان بالقرب من حوض للاستحمام - بانيو- ممتلئ بالماء الدافئ أخذ ينظر إلى وجه الغاضب دائمًا، وضع يده على شفتاه الداميتين ومسحهما ثمَّ رسم ابتسامة نابعة من قلب مظلم، خلع ملابسه فظهر جسد به الكثير من الندبات، ألقى بجسده بكل ما يحمله بداخل ذلك الحوض الدافئ ثمَّ كتم أنفاسه وغاص أسفل المياه.

****

ضابط برتبة نقيب يهبط من سيارته أمام أحد الأقسام ثمَّ يدلف إلى الداخل

وسط التحيات العسكرية وكلمات لا تخلو من المجاملات (هشام بيه)، (نورت القسم يا هشام باشا)، (معالي الباشا) وظلت تلك الكلمات تُلْقى على مسامعه حتَّى وصل أمام باب معلق عليه يافطة كتب عليها بخط بارز (مأمور القسم)، طرق الباب في جدية ليأتيه صوت من الداخل.

- ادخل.

فتح النقيب (هشام) الباب ليجد ضابط برتبة (مقدم) يجلس خلف مكتب يحمل الكثير من الملفات وقطعة خشبية تحمل اِسم (المقدم أدهم حربي)، ما أن رأه حتَّى وقف واتجه إليه محيًّا وهو يقول:

- النقيب، هشام عبد الهادي، فخر الداخلية وأصغر مأمور قسم في تاريخ القسم ده.

ابتسم النقيب (هشام) وقال:

- متشكر يا سيادة المقدم، من بعض ما عندكم.

أشار المقدم (أدهم) إلى النقيب (هشام) كي يجلس وهو يقول:

- يا باشا أنا اه مسكت القسم دة وأنا سني صغير بس كنت رائد مش نقيب، دي محصلتش ولا هتحصل تاني، أنت متوصى عليك جامد يا باشا ما شاء الله.

جاء الرد سريعًا من النقيب (هشام) وقال:

- يا باشا لكل مجتهد نصيب، أنا جيت القسم بدري يوم عن ميعاد استلامي عشان أعرف أكتر عن المنطقة اللي ماسكها القسم وكل العيال الشمال اللي فيها وخباياها، معلش بقى أنا اللي وصلني هنا شغلي وتعبي عشان كدة تلاقيني معرفش أضيع وقت أبدًا.

صدم المقدم (أدهم) فور سماع تلك الكلمات واختفت بسمته المجاملة وقال:

- لأ واضح فعلًا إنك مبتضيعش وقت، ماشي مفيش مشاكل، بس نشرب الأول اتنين قهوة وأحكيلك على كل حاجة وبعد ما أخلص لازم تحكيلي أنت إزاي ظابط أدك في السن يوصل للمركز ده، اتفقنا؟

نظر (هشام) إلى عين (أدهم) وقال:

- هحكيلك بس بعد ما تعرفني أنت كل حاجة، وأدق التفاصيل يا باشا، أفقنا؟؟

تصنع (أدهم) الابتسام وقال:

- اتفقنا يا باشا.

***

الكثير من أعقاب السجائر مدفونة داخل (طفاية) فوق بعضها البعض بجانب فنجان من القهوة قارب على الانتهاء، دخان كثيف يخرج من بين شفتي (يوسف) وهوما زال جالسًا في الشرفة ينظر إلى المارة بنفس ضيق وفكر مضطرب، أنهى أخر رشفة من القهوة ثمَّ توجه إلى الداخل ليجد ابنته (مريم) نائمة على فخذ جدتها التي تمرر أصابعها بين خصلات شعر الصغيرة في حنان، ابتسم (يوسف) واقترب من أمه ثمَّ أمسك بيدها وقبلها وقال:

- ادعيلى يا أمي، ادعي ربنا يفرجها عليا عشان أنا خلاص داقت عليا الدنيا أوي، يوسف أصلان اِتهد يا أمي.

مدت أمه يدها ومررتها على وجه (يوسف) وقالت:

- اللي ليك فيه نصيب هتشوفه يا ابني واهي دنيا وربنا يقدرك عليها وتخرج منها نضيف زي ما دخلتها، هو ده المهم والباقي كله معدي بحلوه ومره، خليك عارف يا ابني إن ليك فيها اِختبار على قد إيمانك وطاقتك، وعاوزاك لما تضلم أوي خليك فاكر إن ليك رب نوره غطى على ضلمة نفوس الناس، رب دنيا وأخره يا أصلان، هو هو يعني ما بينساش ولا بيظلم، الناس هي اللي بتظلم يا ابني.

دمعت عين الأم ومعها عين (يوسف) قبل يدها من جديد واحتضن ابنته النائمة ورفعها إلى صدره، اِبتسم لأمه بود وراحة ثمَّ توجه إلى الباب لتلحق به أمه وتقبل (مريم) النائمة في ود ثمَّ تفتح لهم الباب وتنتظر خروجهم ثمَّ تغلق خلفهم وتهرول بقدم أهلكتها الأيام والسنون إلى الشرفة، ظلت تنظر إليهم حتَّى اِنتهى الشارع واختفوا عن نظرها وسط المارة، دمعت عينها وقبض قلبها، نظرت إلى السماء في رجاء وأخذت شهيقًا ملئت به صدرها ودلفت إلى الداخل وهي تمتم داعية.

***

داخل مطعم فاخر بأحد الأحياء الراقية يجلس رجل الأعمال (أكمل طاهر بسيوني) الذي اِشتهر بأعماله الخيرية والتنموية، رجل طويل القامة، حسن المظهر، أسود الشعر الناعم تخللته بعضًا من الشعيرات البيضاء، تجلس بجانبة زوجته (مرفت محمود نور الدين)، على قدر كبير من الجمال الخارجي والداخلي، متناسقة الجسد وتصغر زوجها سنًا بعقدا كامل من العمر، على الطرف الآخر من الطاولة يجلس المحامي المحنك (رشاد خيري)، اِشتهر دائمًا بقدرته على إخراج موكله من أعتى القضايا، لديه شبكة من العلاقات تتيح له أن يعبر أكثر المواقف صعوبة وتشكل له حائط صد بينه وبين العقبات، جلسوا ثلاثتهم يتناولون الطعام في هدوء وتبادل نظرات تحمل الكثير من المعاني المتضاربة، صمت يتخلله أصوات اِرتطام المعالق بالأطباق الصيني كتلك الحياة التي نحياها الآن تليها حركة الشوكة على سطح الأطباق ممتزجة بتلك الموسيقى الهادئة التي تنتشر في كل أرجاء ذلك المطعم العملاق وتبث في النفوس شيء من الوتيرة الخانقة التي تتمثل في المثالية المصطنعة.

انتهى الجميع من تناول الطعام ورفعت الأطباق ثمَّ وضعت الكؤوس تحوي مشوربات متباينة ما بين الكوحلية والطبيعية، نظر (أكمل) إلى (رشاد) في تعجب وقال:

- أموت وأعرف أنت بتشتغل لحساب مين يا رشاد؟ ولائك لمين يا متر؟

اِبتسم (رشاد) ونظر إلى عين (أكمل) ثمَّ هم بقول شيء ما ثمَّ لاحظ نظرات (مرفت) التي تتفحصه في تقزز وقال:

- أكيد لحسابك يا أكمل باشا، حضرتك رجل أعمال معروف وسمعتك زي الجنية الدهب.

اتسعت البسمة على محيا (أكمل) وألقى بطرف عينه إلى زوجته الجالسة بجانبه ثمَّ قال وهو يشير إلى طاولة بالقرب من الطاولة التي يجلسون عليها:

- حبيبتي مش دي المذيعة نرمين؟ صاحبتك!! مالها قاعدة لوحدها كده، شكلها مستنيه حد اِتأخر عليها.

اِنتبهت (مرفت) لما قاله (أكمل) ثمَّ اِستأذنته للذهاب إليها فرحب بذلك وفور اِبتعداها وهو ما زال معلق نظرة عليها قال بنبرةٍ حادة موجها كلماته إلى (رشاد):

- إية اللي وداك عند (بهاء فوزي) المكتب إمبارح بالليل يا رشاد؟ هو أنت مش عارف إنه المنافس الوحيد ليا في السوق؟ يعني من أكبر أعدائي.

اِرتعد (رشاد) مِمَّا سمع وحاول تبرير فعلته وقبل أن يتفوه بكلمه جائة صوت (أكمل) مهددًا:

- أنت نسيت نفسك ولا إيه يا متر؟ أنت عارفني كويس أنا مبسبش حاجة للصدف ولا بسلم رقبتي لحد، كنت هناك بتعمل إيه انطق؟

قبل أن يجيب عادت (مرفت) بعد أن سلمت على صديقتها المذيعة فقال (أكمل) بعد أن عادت ملامحة إلى المرح:

- قولي أخبار حته الأرض اللي في مرسى علم إيه؟، جبت تصريح البنا ولا لسه؟ عاوزين نبدأ في بنا القرية في أسرع وقت يا متر، الأرض دي بالذات تهمني أنا ومروان باشا العويني فاهمني طبعًا.

تصنع (رشاد) الابتسام وقال:

- خلال أيام التصريح هيكون طلع ونقدر نبدأ في البنا يا أكمل باشا اطمن و طمن مروان بيه.

تبادل الاثنين النظرات الملتهبة من داخل أقنعة بلاستيكية جيدة الصنع وسهلة الارتداء والخلع وقت اللزوم.

***

بصوت ناعس ورأس مستندة على كتف أبيها قالت مريم:

- بابا إحنا رايحين فين؟ البيت طريقة مش من هنا؟ أنا عايزة أروح لماما.

جاء صوت (يوسف) منخفضًا وهو يسير باتجاه سوق شهير بالقرب من منزله وهو يحمل ابنته (مريم) ويضمها إلى صدره:

- رايحين نجيب هدية لماما، عشان أصالحها.

قالت الطفلة بعفوية:

- بابا هو أنت وماما بتتخانقوا كتير ليه؟

صمت (يوسف) قليلًا لا يدري ما الذي يقوله ثمَّ حاول التبرير قائلًا:

- عشان أنا برجع من الشغل تعبان وعايز أستريح وساعات ببقى عصبي وبزعل ماما مني من غير ما أقصد وأديني رايح أجيب ليها هدية وأول ما أرجع هصالحها عالطول بس أنتِ ساعديني، أنتِ عارفه إني معرفش أعمل حاجة من غيرك.

ضحتك (مريم) بصوتٍ مرتفع ثمَّ قبلت جبين أبيها برقة ونظرت إليه في حب ثمَّ قالت:

- بابا نزلني أنا خلاص فوقت.

انزلها (يوسف) أرضًا وأمسك بيدها وتحركا سويًّا باتجاه سوق مزدحم للغاية رغم تأخر الوقت، سارا بسرعة متخطين الزحام من المارة والدراجات النارية وذلك الوباء الحديدي المكون من ثلاث عجلات رديئة وجسد من الصاج اللين الذي لا يسمن ولا يغني من موت (توك توك)، العشرات من الناس يسيرون في اِتجاهات معاكسة بلا هداية كأنهم سكارى وما زال (يوسف) ممسك بيد (مريم) بكل قوته ورفق حتَّى وصلا أمام محل لبيع الفضة.

نظر (يوسف) إلى (مريم) وهو يشير إلى (فاترينه عرض) وقال:

- بصى كده في حاجات حلوة أوي، تعالي اختاري حاجة لماما.

اقتربت الصغيرة وأخذت تنظر إلى محتويات (الفاترينة) ثمَّ أشارت إلى خاتم لامع جميل الشكل وقالت:

- حلوالخاتم ده يا بابا.

اِنتبه (يوسف) إلى ما تشير إليه ثمَّ وقعت عينه على سلسلة جميلة الشكل تحمل اِسم (مريم) اِبتسم وظل يرمقها في إعجاب ثمَّ شرد للحظات وهو يتخيل مدى سعادة اِبنته عندما ترتديها حول عنقها الصغير وتقبله قبلة أخرى على جبينه، أفاق على يده الفارغة، لم تكنْ يد (مريم) بداخلها، قصد الخوف منتصف عموده الفقري، أصابت صاعقة بطعم الضياع رأسه فأردته سكيرًا، نظر حوله كمجنون أطلق سراحة عنوة، لم يجدها، لم يجد نصف قلبه في مكانه، توقف نبضه للحظات تدفق فيها العرق من مسامه كنهر جاري على جبينه، اِرتفع صوته بأسمها كمن يكوي بنار مستعرة، هرول بلا هداية باحثًا عن فلذة كبدة، أخذ يدفع الناس ويوقع كل من في طريقة أرضًا حتَّى يجدها، صعد أعلى سقف سيارة متحركة كي ينظر من أعلى عله يجدها متجاهلًا سباب سائقها الذي هبط من سيارته وألقى به من فوقها، أصيب ذراعه لكنه لم يعبأ لأي شيء، آلاف الأسئلة تتردد في أذنه في

أن واحد، أرادت روحه الفرار من بين ضلوعه خوفًا من مصير أسود أشد قسوة من القتل، دقائق كساعات وضجيج النفس لا ينتهي، كيف فقدها؟ لا بل كيف له أن يفقدها؟ بل هي من فقدته وتركته وحيدًا هكذا، كان على عقله أن يشت لكنه تمسك بالبقاء من أجلها، تمنى لو مات قبل أن تولد، تمنى لو أن لم تخلق الحياة من الأساس، تجمع الناس حوله مكونين حلقة ضخمة ينظرون له في شفقة وهم يتمتمون في أسى مصطنع ودعاء لا طائل منه قد اِعتادوا عليه، فقد القدرة على السمع والبصر، اِرتعشت أطرافه وهرول إلى من ينجده.

(2)

"صنم آخر ما زال يعبد ومن أجله تقدم القرابين طيلة الوقت، هناك في محرابه تراق الدماء وتتساقط الضحايا قهرًا، شريعته الظلام وليس هناك من مغفرة أو توبة فقط الغضب والشهوة، أنهار حمراء تسري داخل جنته وأشجار نتنة الرائحة تنبت على ضفافها، صنم لم يهدم وما زال يتعاظم شأنه بمرور الزمان، إنه صنم لذلك الإله الأذلي الذي يسكن في القلوب السوداء وهناك الكثير يعتنقون دينه بكل خشوع في كل يوم، إنه المال".

أصوات مرتفعة ناتجة عن اِحتكاك المعدن وأسطوانة ماكينة الخراطة ومن خلفها يقف رجل في منتصف العقد الخامس من عمره، طويل الجسد، أصلع الرأس، يرتدي عوينات تظهر عينيه صغيرة من خلالها، يقف خلف ماكينة الخراطة ويتابع عمله بحرص، انتهى الضجيج فور إغلاق ذلك الرجل الماكينة وتوجه إلى كرسي خشبي موضوع خارج المحل الذي كتب أعلاه على يافطة خشبية (محل عبد المجيد السيد للخراطة)، أمسك الرجل بكوب شاي ساخن موضوع أمامه على طرابيزة حديدية وأخذ منها رشفة ثمَّ أعادها إلى مكانها، أصدر هاتفة الجوال صوت رنين، أخذ يبحث عنه حتَّى وجده في أحد جيوب بنطاله الواسع المتسخ، نظر إلى شاشة الهاتف ليتأفف ويجيب على مضددٍ قائلًا:

- أيوه يا ابني، عامل إيه؟

يستمع إلى ما يقال فيزداد ضجرًا ويرد:

- أنا عارف يا ابني إني متأخر عليك، بس أنت شايف الحال، أنا راجل زي أبوك وأنت ربنا ميسرها معاك من التاكسي والمحلات وشغلك ماشي الله ينور، اصبر عليه شوية.

يستمع إلى كلمات تؤلمه فيرد ملطفًا:

- يا ابني حسد إيه، ده أنا اللي مربيك من وأنت عيل صغير، أنت كنت بتبات عندنا في البيت لما أبوك الله يرحمه كان بيسافر، أنت ناسي إنك كنت بتاكل في طبق واحد أنت ونور بنتي ولا إيه، اصبر عليه شوية وأنا هدفعلك إن شاء الله.

يغلق المكالمة ثمَّ يضع الهاتف الجوال في جيبه وهو يحمل على وجه ملامح الضيق والكرب، يتجرع بقية كوب الشاي على دفعة واحدة رغم سخونته ثمَّ يعود ليقف خلف ماكينة الخراطة ويعود صوتها المؤذي للآذان في الارتفاع من جديد.

***

شهاب يلمع في السماء المظلمة في ليلة غير قمرية، صوت الرياح يمر على مسامع عدة رجال يتحركون وسط الصحراء ويتلاعب بنيران شعلاتهم فيزيد الأمور رهبة، يتحرك هؤلاء الرجال بخطوات بطيئة ويحمل أحدهم طفل لم يتخطَ الثلاثة أعوام مخدر تمامًا ويبدو عليه الوهن والإعياء الشديد، يقتربون من رجل يجلس أرضًا، حاد الملامح، أسمر البشرة، ويبدو عليه طول القامة رغم جلوسه أرضًا، يرتدي جلباب أسود وبيده سبحة خشبية عظيمة الحجم، ينظر إلى فتحة صغيرة في الأرض ويتمتم بصوت مرتفع تارة وتارة أخرى يهمس إلى الأرض، يضعون الطفل أمامه ويعودون إلى الخلف في توجسٍ ورعب.

يمسك الرجل بسكين حاد ويقترب من الطفل الفاقد للوعي، يجذبه من شعرة بغلظة ثمَّ يمرر السكين الحاد ببطء على رقبته لتسيل دماء الطفل بتروٍ وتتجه إلى تلك الحفرة غريبة الشكل، يرتفع صوت الرجل ببعض الكلمات الغير مفهومة ويقف على قدمه كالمجنون يتحرك بشكل دائري حول الطفل بحركات بهلوانية لعدة دقائق ثمَّ يتوقف ويشير إلى أحد الرجال فيهرع ويحمل جثمَّان الطفل الذي نضبت دمائه من عروقه ويتحرك به إلى بعيد ويقوم بدفنه بمساعدة رجل آخر.

صوت يرتفع من باطن الأرض يخيف الجميع، يبتسم ويجلس ذلك الرجل غريب التصرفات ثمَّ يقول:

- خلاص الرصد قبل الهدية والقربان ، ابدأوا الحفر يا رجالة.

يهرع الرجال بمعدات الحفر في اِتجاه الحفرة ويبدأوا في إزالة الرمال والحفر

بجد لبعض من الوقت وسط ترقب من ذلك الرجل وهو ما زال يتمتم ويحرك يديه على السبحة الخشبية.

مرت نصف الساعة ثمَّ صاح أحدهم وهو يخرج شيء من الأرض وهويقول:

- يا شيخ مديح، لقينا الدليل، يا شيخ مديح.

يتفطن (مديح) لما قيل ويقف مسرعًا ثمَّ يتحرك في اِتجاههم ليعطيه الرجل تمثال فرعوني صغير، تلمع عين (مديح) ويقول:

- يلا يا رجاله ده أول الخير، كملوا عاوزين نفضي المقبرة قبل طلوع الفجر.

يبتعد عن منطقة الحفر قليلًا ثمَّ يخرج هاتفة ويجري اِتصال ينتظر أن يجيب الطرف الآخر ثمَّ يقول:

- مروان باشا، الصنارة غمزت وبان الدليل وقبل الفجر كل البضاعة هتبقى في طريقها ليك.

***

نظر النقيب (هشام) إلى ساعة يده فوجدها تخطت الثانية صباحًا وهو ينظر إلى المقدم (أدهم) الذي ظهرت عليه ملامح الضيق من كثرة الحديث عن الحي الواقع به القسم وطبيعة ساكنوا ذلك الحي ومدى سوء حالتهم قائلًا:

- بس يا هشام باشا وهي دي أهم المشاكل اللي في الحي اللي إحنا ماسكينه، تقدر تقول يعني ناس فقره بس بمزاجهم، مجرمين بس غلابة وعندهم أسبابهم، شوية حاجات داخله في بعضها يعني.

ابتسم النقيب (هشام) وقال:

- أنا تعبتك معايا يا أدهم باشا بس أنت عارف إني همسك الشغل هنا من

بكرة الصبح أو بمعنى أصح أنا دلوقتي فعليًّا بعد ما الساعة عدت 12 بقيت ماسك القسم ومسؤل عن كل الحي ده، سامحني سهرتك معايا.

قبل أن يتفوه المقدم (أدهم) بكلمة جاء صوت شجار مرتفع من الخارج، هم الضابطين واقفين وتوجهوا إلى مصدر الصوت فوجدوا أن الأمين (مجدي) ممسكًا بتلابيب (يوسف) المنفعل بشدة وهو يطيح بكل من بطريقة حتَّى يصل إلى مكتب المأمور.

يتحرك النقيب (هشام) سريعًا كي يفض تلك المشاجرة ويحاول فهم كل ما يحدث ولماذا يبدو على ذلك الشاب الانفعال الشديد؟، اِقترب بشدة وأزاح الأمين (مجدي) بعيدًا عن (يوسف) ورفع صوته:

- يلا كله يروح على مكانه، يا أمين مجدي خلاص روح على مكتبك، وأنت يا ابني اهدى كده وتعالى معايا على المكتب أفهم منك.

نطق يوسف بانفعال:

- مريم اتخطفت يا باشا، خطفوا بنتي.

نظر (هشام) إلى (يوسف) فوجد قلب يحترق وجسد مشتعل وعقل كاد أن يشت فوضع يده على كتفه وتحرك به إلى المكتب وسط نظرة غاضبه من (أدهم) الذي قال:

- طيب يا هشام باشا واضح كده إنك استلمت أول مشكلة ليك بدري، إديني نص ساعة كدة ألم حاجتي وهيبقى المكتب تحت أمرك.

نظر (هشام) إلى (أدهم) وقال:

- خد وقتك يا باشا أنا كده كده هنزل معاه.

ثمَّ نظر إلى (يوسف) وقال:

- هو أنت اِسمك إيه؟

رد مسرعًا:

- أصلان يا هشام باشا، يوسف أصلان، بس والنبي لازم نلحق بنتي قبل ما يحصلها حاجة.

أومأ (هشام) برأسه وقال موجها حديثة إلى (أدهم):

- أستاذنك أنا يا باشا وفرصة سعيدة إني قابلتك، اه وبالمناسبة أنا استلمت القسم من دلوقتي خلاص.

ثمَّ توجه هو و(يوسف) في اِتجاه السلالم التي تقود إلى باب القسم في عجالة وتبعتهم قوة من أمناء الشرطة والعساكر، بينما كان يرقبهم الأمين (مجدي) بكل غضب، فور خروجهم من باب القسم وجدوا في طريقهم شابة في عقدها الثالث من العمر تبكي وهي تقول (اِبني اِتخطف، حد يلحقني يا ناس) اِستشاط النقيب (هشام) غضبًا وأحس أن هناك أمر ما جلل يحدث في ذلك الحي.

***

قدم تتحرك خروجًا من الصحراء إلى أحد الطرق السريعة في اتجاه سيارة حديثة الطراز تقف على جانب الطريق، يصل صاحب القدم ويطرق زجاج السيارة فيفتح له أحدهم بيده رزمة كبيرة من الأموال ويعطيها لشاب أسمر البشرة بوجه مستدير و لديه ذقن خفيفة، يمسك بالمال ويعد أوراقة جيدًا ثمَّ يخرج كيس به مسحوق أبيض من حقيبة ظهرة ويضعها في كف صاحب السيارة ثمَّ يبتسم ويرسل له قبله في الهواء ليرد عليه الأخر:

- حبيبي يا بِشر، الأسبوع الجاي ميعادنا في نفس المكان بس المرة الجاية كيسين وابعت سلامى للكبير.

يسمع الاثنين صوت سيارة شرطة تقترب من بعيد، يرتعد الاثنين ويندفع من بداخل السيارة بسرعة جنونية على الطريق بينما يقف (بِشر) في خوف ويحاول الهروب إلى الصحراء ليجد قوة من الشرطة تتجه إليه وفجأة أصبح وسط عدد كبير منهم، جثى على ركبته ووضع يده خلف رأسة بعد أن ألقى بالحقيبة التي تحوي المال والهيروين بعيدًا عنه.

تحرك إليه أحد أفراد الشرطة وألقاه على وجه أرضًا ثمَّ كبلة بينما أحضر أخر الحقيبة، وضعوه داخل (بوكس) وتحركوا عبر الطريق السريع مصدرين صوت السرينة المعتاد.

دمعت عين (بِشر) وهو يفكر فيما ستؤول إليه الأمور وأنه لا يمكنه الاعتراف بمصدر تلك المخدرات وإلا سيكون قد اِعترف على أخوه الذي يكبرة بأعوام والذي كان دائمًا ينصحه بالعمل معه بدلًا من الفقر المضجع الذي يعيشه والآن هوفي كرب أكبر من الفقر.

***

شابة في أخر عقدها الثاني من العمر، جميلة الملامح، متوسطة القامة ذات جسد أنثوي جذاب، تتحرك في ممر يقود إلى صالة ضيقة تتوسط شقة صغيرة المساحة وبيدها (صينية) موضوع عليها فنجانين من القهوة، تلمح عينها الساعة المعلقة على الحائط لتجدها تخطت الثانية بعد منتصف الليل، تشعر بوخذة ما في قلبها متزامنة مع تعرقلها بقدم أحد الكراسي الخشبية لتقع من يديها ال(صينية) التي تحمل القهوة محدثة ضوضاء وخوف في نفسها.

تهرول إليها فتاة أخرى في مثل سنها تقريبًا تحاول إسنادها وهي تقول:

- على مهلك يا نور، خير، دلق القهوة خير.

نظرت لها (نور) بقلبٍ مضطرب غير مدركة لتلك الحالة من الخوف التي اِنتابتها فجأة وقالت:

- خير، أنا هكلم أصلان أشوفوا إتأخر ليه كده، ولا تفتكرى يا ملك أسيبه لما يرجع.

ردت (ملك) ناصحة:

- يا نور أنتِ عارفة يوسف عمره ما هيبات من غير ما يصالحك وبعدين يا ستي كل البيوت بيحصل فيها مشاكل، حافظي على أصلان وعلى بيتك يا نور وبعدين عشان خاطر مريم.

جائت كلمة (مريم) لها وقع مؤلم في قلب (نور) التي هرولت إلى الهاتف وأخرجت رقم (يوسف) واتصلت به عدة مرات من دون رد فزاد خوفها وقلقها، لاحظت (ملك) ذلك فحاولت طمأنتها ومساعدتها في تنظيف الأرض من القهوة.

***

قارب خيط الفجر الرفيع على الظهور ليضيئ تلك الصحراء الخاوية، ذات اللون الأصفر والروح السوداء، صحراء توارى الكثير من القصص والخبايا المؤلمة والمخيفة، يختبئ بها دائمًا كل ما هو مؤذي وموحش ومن بين كل هؤلاء هناك ثعبان أقرع يسكن أحد المصانع المهجورة بداخلها.

أصوات سيارات ودراجات نارية تقترب من ذلك المصنع يراهم (حمزة) عبر الكاميرات، يرتدي ملابسه ويضع سلاحة الناري خلف ظهره ويخرج من غرفته السرية ثمَّ يهبط السلالم في هدوء، يفتح القفل ويسحب الجنزير الثقيل ثمَّ يفتح الأبواب على مصراعيها.

تدخل السيارات واحدة تلو الأخرى موضوع بداخلها أطفال مخدرين تمامًا

يتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والتاسعة من العمر، اِنتظر حمزة حتَّى أتى الجميع وأخذ يحصي رجالة ويحصي عدد الأطفال فوجد أن (شبل) لم يحضر بعد، اِحمر وجه وأخذ يجز على شفتيه في حنقٍ ثمَّ أخرج هاتفه واتصل ب(شبل) فوجد هاتفة مغلق، اِرتفع صوت ضحكاته فعلم الجميع المصير الذي سيلحق ب(شبل) وأسرته المسكينة.

نظر (حمزة) إلى أعين رجالة متلذذًا بخوفهم الظاهر من داخل أعينهم ثمَّ قال:

- أنا خيرته وهو اختار، غبي بقى نقول إيه.

مرت نصف الساعة وسمع الجميع صوت سيارة نقل تقترب ويهبط منها رجال كثر أخذوا الأطفال على ظهرها ثمَّ هبط من السيارة رجل ضخم واقترب بحقيبة سوداء من (حمزة) وقال:

- أنت الميت؟

ابتسم حمزة وقال:

- أيوة أنا وأنت بقى مين؟

وضع ذلك الضخم الحقيبة أرضًا أمام (حمزة) وقال:

- دي تخصك وأكتر من كدة ميخصكش، أكمل باشا بيقولك عاوزين 20 عيل تاني الأسبوع الجاي.

اِتسعت بسمة (حمزة) وقال:

- وهو ميقوليش ليه؟ تلفونه ضاع؟

اِرتفع صوت الضخم قائلًا:

- أكمل باشا مبيحبش يكلم الأشكال اللي شبهك، الكلام بعد كده هيبقى معايا أنا وهتقولي يا....

قبل أن يكمل ذلك الضخم كلماته كانت هناك رصاصة قد اِخترقت رأسه قادمة من سلاح يمسك به (حمزة) فور سماعها أخرج كل الرجال أسلحتهم في خوف ليجدوا رجال (أكمل) أن المواجه هنا خاسرة وإن العدد لصالح رجال (حمزة) فنظروا إليه في خوفٍ ليقول:

- لا يا رجالة متخافوش، أصله ضايقني، كملوا عادي وأنت يا ابني منك ليه شيلوا السلاح، خلاص الموضوع مش مستاهل.

انتهوا الرجال سريعًا من وضع الأطفال داخل السيارة النقل ثمَّ تحركوا بها مسرعين إلى الخارج تاركين جثمَّان ذلك الضخم أسفل قدم (حمزة) الذي أخرج هاتفه الجوال وصور تلك الجثة وأرسلها إلى (أكمل) وكتب بعدها: "يا باشا أنا دراعك اليمين وخدامك وتحت أمرك وده الفرق بين الرجالة والنسوان، وأنت يا كبير تعرف تفرق".

أشار (حمزة) إلى أحد رجالة وقال:

- شيلوا العجل ده اِدفنوه في أي داهية وتعالوا عشان كل واحد ياخد فلوسه ومتنسوش إن عندنا دفنه أخوكم (شبل) وعياله.

(3)

"البعض يسلب كل شيء من دون سبب، يوضع داخل متاهة عملاقة من أجل أمر مجهول، يجلد دون ذنب، يحكم عليه بالشقاء الدائم، ينتهي حتَّى قبل أن يبدأ، ولا يحق له أمران السؤال والصراخ فقط التعاسة".

الدموع تملئ عينيه والحزن اِلتهم قلبه وأحاله إلى رماد، رأسه لا تسعفه في إيجاد الحلول، جسده أصبح كخرقة بالية وقدماه لا تحتملان المزيد فجلس أرضًا وأسند ظهره إلى الحائط ورفع وجه إلى السقف فوجد وجهها البريء يبتسم إليه، سالت دموعه قهرًا، اِرتعشت شفتاه باسمها ندمًا، وقع بعقله صوتها فأصابه الجنون واعتدل، وقف وأخذ يبحث عنها في كل مكان بين أروقة القسم حتَّى وجد أمامه (نور) وقد أُحيل لون وجهها إلى الأصفر وعينيها لا تكف عن إنتاج المزيد من الدموع، نظرتها اِخترقته لومًا وقنوطًا، أقبلت عليه ونظرت إلى وجهه الشاحب فتأكدت من الأمر، لقد فقدت أغلى ما تملكه، فقدت آخر خيط كان يربط بينهما، اِرتفع صوتها بالغضب وقالت:

- بنتي فين يا يوسف؟ ضيعت مريم؟ حرام عليك يا أصلان.

وأخذت تنهال عليه بالضرب وهو يقف متحجرًا كمن أصيب بلعنة لا ترفع أبدًا عنه، اِقتربت (ملك) بسرعة ووقفت بينها وبين (يوسف) محاولة تهدأتا وهي تقول:

- اهدى يا نور، إن شاء الله خير، اهدى.

نجحت في أبعادها عن (يوسف) ثمَّ ألقت نظرة مواساة إليه تحمل الكثير من الود فتلقاها من دون شعور فالأموات لا يشعرون، ثمَّ أفاق على وجه زوجته وهي تجلس أرضًا وتبكي حالها، حاول أن يقترب منها لكنها أزاحته من طريقها ورحلت بصحبة (ملك) إلى خارج القسم.

آلم الصمت بكل جوارحه، غمرته السكينة فجأة من دون سبب، تماسك للحظات وشعر بالأمل يبث إليه من مكان مجهول، عاد عقله للعمل بعد غياب، البكاء والمكوث بجانب الحائط لن يغير من الأمر شيئًا هكذا حدث نفسه، اِتخذ قراره بأن يستعيدها بأي ثمَّن، نظر إلى السماء عبر نافذة ما وجدها مفتوحة بالقرب منه كأنه يناجيها، أخرج علبة سجائرة فوجدها خاوية، أصابه إحباط ليجد يد تمد له بسيجارة، نظر إلى صاحبها ليجد شاب (ممتلئ الجسد بوجه دائري وعينان واسعتين خضراوين، ذو شعر خفيف مصفف للأمام كخطوط سوداء على لوح أبيض) فور أن رأى ملامحه قال:

- سيد!، أنت هنا من امتى؟

جاء الرد من (سيد) مواسيًا وقال:

- أنا جيت مع نور وملك، أنا وصلتهم وفضلت مستنيهم بره عشان أرجعهم، أنت عارف الوقت متأخر، بس لما لقيت نور خارجه بتعيط عرفت إنكم اِتخانقتم مع بعض كالعادة، بس المرة دي الموضوع كبير يا أصلان، نور مش هتسامحك لو حصل حاجة لمريم، أنت لازم تلاقي حل وبسرعة.

اِنفعل يوسف وقال:

- خلاص يا سيد بقى، روح أنت روحهم وتعالى الصبح، أنا هبات هنا النهاردة كلها كام ساعة والنهار يطلع، وبعدين أنا كلمتك وقلتلك متقولهاش حاجة وطمنها أننا بخير تقوم تجيبها لحد هنا.

حاول (سيد) التبرير وقال:

- ما هي كانت هتعرف هتعرف يا أخي، أنا قلت أجيبها عشان متقعدش على نارها طول الليل، بص أنا هروحها وأجيلك نبيت سوا.

رد (يوسف) مجددًا وقال:

- لا يا سيد روحها ولوينفع تخلي ملك تبات معاها يبقى كتر خيرك، وأنت تعالي بكره يكون في جديد إن شاء الله، معلش لو انفعلت عليك بس أنت مقدر اللي أنا فيه، متزعلش مني.

قال (سيد):

- عيب يا جدع ده إحنا متربين مع بعض، إحنا إخوات، متقلقش على نور أنا هخلي ملك أختي تبات معاها اليومين دول لحد ما ربنا يرجعلنا مريم بالسلامة.

وضع (سيد) يده على كتف (يوسف) مواسيًا ثمَّ تركه وتوجه إلى باب الخروج حتَّى اِختفى عن أنظاره، جلس (يوسف) أرضًا وهو يشعل تلك السيجارة التي أعطاها له (سيد الخولي)، أخذ نفسًا عميقًا ثمَّ أسند ظهره إلى الحائط مرة أخرى وأخرج صورة ل(مريم) ظل يمسح عليها كأنه يمسح على وجهها بحزنٍ وندم، نظر إلى السقف فوجدها تنظر إليه من جديد، أخرج زفير مليء بالدخان حتَّى تبددت ملامحها عن نظراته لكنها لم تختفِ عن قلبه.

***

داخل استوديو تصوير تتحرك فتاة في منتصف العقد الثالث من العمر"صاحبة بشرة قمحية لامعة وشعر أسود داكن يضفي المزيد من لمعان الوجهه ككل وجسد أنثوي ممتلئ بعض الشيء ترتدي بنطلون أسود وبلوزة زرقاء مع كرافتة صغيرة سوداء "اتجهت إلى مكان المذيعة خلف مكتب عليه بعض الأوراق واقترب أحدهم كي يعلق لها مايك" "الصوت ومع عد تنازلي انتهي ب" اتفضلي يا أستاذة نرمين، بدأت قائلة:

- أهلًا بيكم في حلقة جديدة من برنامج كشف المحظور، النهارده هنتكلم عن قضية هامة جدًا ومنتشرة جدًا جدًا وللأسف أصبحت سمه من سمات المجتمعات الفقيرة الجاهلة، إحنا بنتكلم عن ظاهرة الخطف وتوابعه، بقينا نسمع مؤخرًا

عن حالات خطف كتير جدًا وعن أُسر بتدمر كليًّا بسبب حرمانها من أعز ما تملك"الضنى"، المشكلة بدأت من وقت طويل جدا لكنها اِنتشرت بشكل ملحوظ من 4 سنين تقريبًا ومعدلات الخطف في تزايد مستمر حتَّى اليوم،حتَّى اللحظة اللي بنتكلم فيها دلوقتي، طبعًا إحنا منقدرش ننكر دور الداخلية في اِستعادة بعض الأطفال دي لكن الأغلب في حلات الخطف إن الأب والأم مبيشوفوش الطفل تاني أو بيشوفوه جثة وده بياخدنا لموضوع أكثر من مقلق وهو تجارة الأعضاء اللي حالات الخطف بيكون معظمها عشان تجارة الأعضاء دي، هنطلع فاصل ولما نرجع هيكون معانا ضيف تابع لوزارة الداخلية هيكلمنا أكتر عن الظاهرة دي والمجهودات المبذولة من الداخلية للوصول لرؤوس تلك التجارة المحرمة، هيكون معانا بعد الفاصل اللواء "عثمَّان حماد" مساعد وزير الداخلية، أشوفكم بعد الفاصل.

أغلق أحدهم التلفاز الذي كان يعرض ذلك البرنامج وظهرت ملامحه بالكاد في اِنعكاس كأس ممسك به يحوي سائل لونه أحمر، تجرعة على دفعة واحدة ثمَّ أخرج هاتفه وأجرى مكالمة اِنتظر الرد عليها ثمَّ قال:

- واضح إن البنت المذيعة دي اللي اِسمها نرمين صلاح بكر مش هتجيبها البر معانا، الاجتماع الجاي لينا لازم نشوف هنعمل معاها إيه، أعتقد إني عندي اللي يخلصنا منها من غير دليل واحد ضدنا، هبقى أقولكم عليه لما نتقابل المره الجاية.

***

العرق ينساب من على جبينه، عينيه تنظر باستمرار إلى اِنعكاس الطريق في المرآة التي أمامه وهو يقود مسرعًا، يمسح عرقه بيده ثمَّ يلقى نظرة على تلك الطفلة المخدرة "مريم" وهي تغط في نوم عميق بجانبه، ملاك حكم عليه بالوأد بدون ذنب، لا يعلم ما العمل الآن، أيعود بها إلى ذلك المصنع المظلم ويضعها بين

يدي غليظة تنتمى لأصلع الرأس معدوم الرحمة لتصبح قطع غيار لإنسان آخر لا يعلم من أين حصل على عضو جديد بعد أن فقد مثيله مقابل حفنة من المال أم يأخذها إلى المجهول ويتركها وسط الطرقات تعاني مستقبل منفر يقود إلى الهاوية في نهاية المطاف أم يبحث عن أهلها ويرضي ضمير مثقوب بمخيط الإثم، قلبه يرفض تركها تعاني وعقله يلح عليه بأن يتحلى بالصبر ويتمسك بأوسط الأمور حلًّا، تذكر كلمات (حمزة) عندما أخبره أن أحد أبنائه سيكون بديلًا لها.

عندما اِحتدم الصراع داخل عقله ضغط على المكابح في شارع مظلم ثمَّ هبط من السيارة وأخرج الطفلة "مريم" ثمَّ وضعها أعلى رصيف بارد، خلع معطفه في محاولة يائسة لإرضاء ضميره الهش ثمَّ وضعه فوق جسدها الضئيل، ألقى عليها نظرة أخيرة تحمل الخوف والندم ثمَّ قال (سامحيني ده كل اللي قدرت أعمله).

دلف إلى سيارته وتحرك بها مسرعًا، الضوء بدأ يخترق الظلام معلنًا عن فجر جديد، أخرج هاتفة وبحث عن رقم زوجته، لقد أعد كل شيء من أجل الهروب، الهروب بزوجته وأطفاله من براثن نفس مظلمة، أجرى اِتصال وانتظر الإجابة على جمر مشتعل في جوفة، أجابت بصوت ناعس.

- ألو، أيوة يا شبل، أنت فين؟.

تدفق الهواء إلى صدرة فعادت إليه الحياة وقال:

- دعاء، صحي العيال بسرعة ولمي كل اللي تقدري عليه في شنطة، افتحي الخزنة ولمي كل الورق والفلوس اللي فيها، أنا جاي في الطريق قدامي ساعة بالكتير، متفتحيش لحد مهما كان.

جاء صوتها يشوبه القلق والفزع.

- هوفي إية يا شبل؟ أنت ضايقت الميت؟

أجاب شبل في عصبية

- متقلقيش محدش يعرف مكانك بس اعملي كل اللي قلتلك عليه و...

سمع (شبل) صوت تحطم شيء ما ثمَّ أتى صراخ زوجته عبر الهاتف مستغيثة به فقال:

- دعاء، دعاء.

بدأت دموعه في الانسياب وأصبح شاحب الوجه كمومياء ترقد داخل قبرها منذ آلاف السنين، أتى صوت يعرفة جيدًا ويمقته عبر الهاتف قائلًا:

- أنا مكنتش أعرف إن مراتك بالحلاوة دي يا شبل، أوعدك إني هكون مؤدب معاها لحد لما توصل، بس موعدكش إن الرجالة يكونوا مؤدبين أصل من ساعة ما شافوها بقميص النوم الأحمر ده وأنا ماسكهم بالعافية، يا محظوظ، أتريك كنت مخبيها بعيد عني، يلا سلام وأنا عارف إنك أكيد مش هتتاخر أكتر من كده أصل لو أنت اتاخرت أكيد مش هعرف أحوشهم أكتر من كدة أو بمعنى أصح أحوش نفسي.

كاد أن يفقد (شبل) صوابة وقال:

- والله يا ابن الكلب أنت...

أغلق الخط في وجهه، أخذ يخبط رأسه في "دركسيون" السيارة حتَّى أدمت، حاول الاتصال من جديد فوجد الهاتف مغلق، اِرتفع الخوف إلى حد السماء في صدره وأظلمت الحياة، زاد من سرعة السيارة متسارعًا مع دقات قلبه، هناك إضاءة قوية تقترب منه لم يلحظها قبل أن تصطدم سيارته بسيارة نقل كبيرة الحجم وتنقلب لعدة مرات محدثة ضجة كبيرة.

بعد عدة دقائق أفاق على وجه أناس يخرجونه من داخل سيارته المهشمة قبل أن تشتعل به، اِستعاد وعيه، أزاح الجميع من أمامه ثمَّ اتجه إلى السيارة

من جديد، أدخل زراعة وبحث عن سلاحه الناري حتَّى وجده، شعر بألم شديد في إحدى قدميه لكن ألم قلبه كان أعظم بكثير، تحرك سائرًا بصعوبة مبتعدًا عن مكان الحادث بعين دامعة.

***

النقيب (هشام) يجلس خلف مكتبه الذي وضع عليه قطعة خشبية تحمل اِسمه ومنصبه الجديد ووضع عليه الكثير من الملفات التي تحوي معاناة الناس ومشاكلهم التي لا تحصي، حاول أن يحصر القضايا الأكثر ظهورًا فوجدها تنحصر بين محاضر خطف وأخرى مخدرات ومشاجرة، تذكر وجه ذلك الشاب الماكث بالخارج يجلس أرضًا ينعي حاله (يوسف)، بحث عن المحضر الذي حرره ليجد مرفق به صورة تخص طفلته (مريم)، نظر إلى التلفاز الموضوع بأقصى الغرفة فوجد إعادة برنامج شهير يذاع، يتابعه هو باهتمام كبير، أمسك بال(ريموت) ورفع من صوت التلفاز، اِستمع إلى ما تقوله المذيعة وذلك الضيف بصحبها برتبة "لواء" فوجدهم يتحدثون عن ظاهرة الخطف المنتشرة ومدى خطورتها على المجتمع وارتباطها بتجارة الأعضاء، أحس أن هناك علامة ما تقوده إلى شبكة معقدة، علم أن تلك المذيعة هي المفتاح لباب يصعب فتحه، نظر مرة أخرى إلى صورة (مريم) وشرد مع صوت المذيعة لثواني حتَّى قطع شرودة صوت هاتفه يرن.

أجاب قائلًا:

- النقيب هشام عبد الهادي، مين معايا؟

جاء صوت ضعيف من الهاتف:

- العقيد عبد الله زكريا معاك يا حضرة النقيب، طمني إيه أخبار القسم عندك، قبضت على كام مجرم؟

قالها ساخرًا لترتسم ابتسامة خفيفة على محيا (هشام) الذي قال:

- الناس هنا مطحونة أوي يا عبد الله باشا، سيادتك اخترتلي مكان صعب جدًا، أنا بقالي هنا أقل من 48 ساعة وعرفت بلاوي بتحصل ووراها ناس كبيرة بس من غير دليل واحد ضدهم.

ارتفع صوت العقيد عبد الله عبر الهاتف قائلًا:

- أنت كنت فاكرني جايبك هنا تتفسح يا حضرة الظابط، أنت لازم تنزل في وسط بؤرة الفساد عشان تقدر تنضف المجتمع منه، أوعى تكون نسيت الفساد عمل إيه في عيلتك زمان لما أبوك الله يرحمه حاول يحاربه، أبوك مات يا هشام عشان واحد من اللي بتتكلم عنهم دول والفرصة جاتلك وأنا قدمتهالك تحت رجليك، وريني نتيجة ثقتي فيك.

أغلق العقيد (عبد الله) الهاتف تاركًا (هشام) يتذكر كل ما تعلمه على يد ذلك العقيد الذي تبناه وحاول جاهدًا أن يجعله أكفأ ضباط المباحث وأكثرهم نشاطًا، تذكر وجه والده عندما كان منهمكًا في مكالمة هاتفية أتته بعد أن قام بنشر خبر عن رجل أعمال فاسد، هددوه بعدها ثمَّ نفذوا تهديدهم ففقد في لحظة واحدة كل أسرته، أراد الثأر بكل جوارحه لكنه لم يتمكن من ذلك، علم أن طريق القضاء على الفساد طويل ومجهد، تعلم أن يحقق العدالة بطريقته الخاصة.

***

عسكري ممسك بزراع شاب هزيل الجسد يجره جرا إلى مكتب ما في قوة وعنف يقابله اِستسلام وتراخي من ذلك الشاب، طرق العسكري الباب ثمَّ فتحه ودلف إلى الداخل وقال:

- المتهم بشر يا فندم.

نظر إليه شاب مهندم وعلى قدر من الوسامة والجدية يجلس خلف مكتب

موضوع فوقه العديد من الأوراق ولافته مكتوب فوقها (وكيل النيابة / خالد منير) وبجانبه رجل آخر يمسك بقلم وأمامه ودفتر في موضع تأهب للكتابه، قال خالد:

- دخله يا ابني واقفل الباب وراك.

خرج العسكري ثمَّ دفع (بشر) إلى الداخل وأغلق الباب خلفه في عجاله، بوجه حزين ونفس ضيق تطلع (بِشر) إلى محتويات وجوانب الغرفة ثمَّ إلى وجه (خالد) الذي أشار له أن يقترب ويجلس، فعل ما أمر به وجلس في صمت وهدوء قطعه صوت (خالد) سائلًا:

- اسمك وسنك ومهنتك.

رفع (بِشر) رأسه في أسى وقال:

- اسمي بشر حسن عبد الكريم، سني 28 سنة، أنا معنديش شغله فهيبقى المفروض يتكتب عاطل.

انتبه (خالد) إلى ما قاله (بشر) فقال:

- عاطل؟؟ طيب أنت خريج إيه يا بشر؟

اِبتسم (بشر) ساخرًا ومتحسرًا على حاله وقال:

- ليسانس آداب قسم تاريخ يا فندم.

ظهرت معالم التعجب على وجه وكيل النيابة الشاب وقال:

- آداب قسم تاريخ؟ ومش شغال ليه؟

اِختفت تلك البسمة المزيفة عن وجه (بشر) وقال:

- لا ما هو أنا اِشتغلت بعد ما تخرجت عالطول، أمن لمدة سنة بمرتب ميكفيش مواصلات الشغل حتَّى، بعدها خدمة عملاء سنتين تقريبًا واترفدت لما شتمت عميل بامه لما حبيت أرد شتيمته لأمي، كاشير ماشي، دليفيري تمام، مشغل العاب

في ملاهي أطفال، وفي الآخر 28 سنة والمحصله صفر فلوس، صفر نجاح، سفر كل حاجة.

اندفع (خالد) قائلًا:

- فتقوم متاجر في المخدرات وتبقى معاك فلوس كتير طبعًا، هو ده النجاح من وجهة نظرك؟

نظر (بِشر) إلى عين (خالد) مباشرة ثمَّ قال:

- ممكن حضرتك تكتب اللي تحبه في التحقيق وأنا همضي من غير ما أضيع وقتك أكتر من كده؟ أنا معترف على كل حاجة يا فندم.

لم يكنْ بمقدوره الكلام أكثر من ذلك فالروح واهنة والقلب عليل والصدر يحمل الكثير من الهموم التي بدت واضحة على وجهه الشاحب، النار تأكل جدران عقله بلا هوادة أو رحمة، نفسه تلح عليه أن يخبرهم الحقيقة وأن من أتى به إلى هنا هو استماعه إلى صوت الشيطان الكامن في نفس أخوه الأكبر، الابن المدلل والفاسد معًا، ضاقت به الأحوال لترميه أمام باب أخيه من أجل رابطة الدم بينهما فوجد منه ترحيب مشبوه، حقيبه صغيرة تحوي أكياس بيضاء تتحول في نهاية اليوم إلى الكثير من الأموال يتقاسموها سويًّا ويعود الوضع كما كان، لكنه فشل في أن يكون فاسدًا مثل الجميع، فشل في أول محاولة له في طريق الشيطان، والآن تمَّ القبض عليه ولا يستطيع أخبارهم بما حدث خوفًا على أخيه من عاقبة يستحقها لكن هي الدنيا هكذا دائمًا غير عادلة، والآن حان وقت الصمت الأبدي وجعل تلك الحياة البائسة تنتهي سريعًا.

شرد عقله لبعض الثوان ثمَّ انتزعه من شرودة صوت (خالد) وهويقول:

- بشر، يعني أنت مصمم أن المخدرات دي تخصك أنت وبس؟

أومأ (بشر) برأسه إيجابًا.

أخذ (خالد) نفس عميقًا ثمَّ قال:

- واضح إنك حابب تكمل بقية عمرك في السجن على جريمة متخصكش، تعالي امضي هنا، بص يا بشر أنا هديك يومين تفكر وأرجع أحقق معاك من جديد يمكن تكون عقلت وقتها.

تقدم (بِشر) بخطواتٍ مترددة في اِتجاه المكتب ثمَّ أمسك القلم بيد مرتعشة في طريقها إلى التوقيع على ورقة النهاية، مضى بخط سيئ ثمَّ عاد ووقف مواجها إلى المكتب ينظر إلى عين (خالد) كأنه يخبره الحقيقة سرا، أمر (خالد) العكسري أن يأخذ (بشر) ويعيده إلى الحجز.

***

صوت دراجة نارية تقترب مسرعة إلى ذلك المصنع المهجور ومن فوقها (حمزة) يبدو عليه السكر وعدم الاتزان، يقترب من باب المصنع ثمَّ يهبط من فوق الدراجة النارية، يفتح الباب ويدخل الدراجة النارية ويغلق خلفه الباب الضخم، يصعد إلى أعلى السلالم وهو يترنح ثمَّ يفتح الباب الذي يجيد إخفائه جيدًا في كل مره، يتجه إلى حوض الاستحمام وهو بكامل ملابسه ثمَّ يقفز بداخله، يتنفس بقوة بعد أن إزالت المياه مفعول الخمور من رأسه، يخلع ملابسه ويجعل المياه الباردة تنساب على جسده، غاص أسفل المياه حتَّى غمرت كل جسده، بدأ يتذكر كل ما مر به وصولًا إلى هنا، يتذكر تلك السيدة التي كانت تعذبه أثناء الصغر هو وكل الأطفال التي كانت تحتجزهم داخل منزلها المحكم الغلق، تذكر عندما كان يسير حافيًا في الشوارع متسولًا، كم كان صغيرًا للغاية، تذكر عندما سلبته عذريته لأول مرة بعد أن ظهرت معالم فحولته جلية لها وكانت هي أول من يقطف ثمَّاره، يتذكر الغضب الممتزج بالتقزز مِمَّا جعله يتقيأ بعد أن اِنتهت منه في تلك الليلة، ألقته خارج الغرفة وأحضرت آخر كي تطفئ نيران شبقها، الخوف هرب من داخل قلبه في

تلك الليلة ونقط قلبه بالسواد الذي يزداد اتساعًا كنقطة الحبر التي ألقت بكوب ماء، لم يعلم أصل له ولم يدري ما الذي اِرتكبه كي يلقي به إلى تلك الغولة المسماه ب(دلال)، تمنى كثيرًا أن يهرب منها لكنها كانت تمتلك نفوذًا كبيرًا وسلطة واسعة ومعارف أكثر من أي أحد ودائمًا ما كانت تنجح في إعادته ومعاقبته بطرق جديدة أكثر إيلامًا من قبل، حتَّى أتى الوقت المناسب واستطاع الفرار من بين براثنها بعد أن قتل متتبعيه وبعث لها برؤسهم، كانت تلك رسالة كافية لها وقد فهمتها جيدًا وعلمت أن الشيطان قد نمت أجنحته وتعاظمت أنيابه وسقطت فضيلته وعم السواد قلبه، لقد نجحت الآن في خلق مسخ آخر.

انفجرت المياه وأغرقت الحجرة بعد أن هب (حمزة) واقفًا فجأة وهو يشهق كأنه يموت، خرج من المغطس وارتدي ثيابه ثمَّ اتجه إلى حائط ما وأزال جزء منه لتظهر خزينة فتحها ليجد بداخلها الكثير من الأوراق وضع بداخلها كارت ميموري صغير ثمَّ أغلق وأعاد ذلك الجزء إلى حائط من جديد.

اِتجه إلى فراشه وقبل أن يستلقي أصدر هاتفه صوت اتصال ما، اتجه إليه ونظر إلى الشاشة فوجد اِسم (أكمل)، ابتسم وضغط زر الرد وقال:

- أكمل باشا.

جاء صوت (أكمل) عبر الهاتف قائلًا:

- عجبني اللي عملته يا ميت، أنت نجحت في الاختبار، يا ريت تكون قد اللي هطلبه منك.

ابتسم (حمزة) وقال:

- أنا برده قلت إن أكمل باشا بيختبرني، ومتقلقش يا باشا أنا قد كل اللي تؤمر بيه.

أنهى (حمزة) المكالمة ثمَّ وضع الهاتف أعلى المكتب واتجه إلى الفراش من جديد وجلس فوقه يفكر، هو يعلم جيدًا أنه أصبح داخل جحر الثعبان وعليه أن يكون جاهزًا بالترياق في الوقت المناسب.

(4)

"حتَّى الحقائق لا دليل على صحتها، الوجه المبتسم يحمل الكثير من الكره، والوجه العابس لديه نقاء يحيط به، تلك الأجزاء البلاستيكية ما هي إلَّا طلاء يتساقط مع الأيام، لا تتسرع بأصدار الأحكام في حق أحد لعلك لم تتفقد إلا جزئه المزيف، أما جزئه الحقيقي فأنت غافل عنه تمامًا".

داخل مكتب النقيب (هشام) الذي يجلس خلف مكتبه ممسكًا بصور تخص بعض الأطفال من بينهم صورة (مريم) ويصطف أمامه عددًا ممن تم القبض عليهم ومنهم من هو مسجل في جرائم قبل ذلك ومنهم من هو مطلوب على ذمة قضايا، يشعل لفافة تبغ يهوى صنعها بنفسه ثمَّ يقف ويتحرك باتجاههم وبيده صور هؤلاء الأطفال المفقودين، يمر على أولهم ممسكًا بالصور ويقول:

- شوفت الأطفال دي قبل كده؟

يتفقد الصور بحرص ذلك الشاب ذو الملامح الحادة والوجه الذي يحمل الكثير من العلامات ثمَّ ينظر إلى (هشام) ويحرك رأسه نافيًا، يعرض الصور على من يليه فيحصل على نفس النتيجة ثمَّ الذي يليه حتَّى ينتهي الصف، يأمر بأخراجهم والإتيان ببقيتهم وتكرار ذلك الفعل من جديد.

مرت ساعَات عديدة وكانت النتيجة أن من تمَّ القبض عليهم أمس في حملة موسعة من قبل (هشام) وقوات القسم لم يكنْ لهم يد فيما حدث ويبدو أن الأمور ستصبح أكثر تعقيدًا ولن تكون فك شفراتها سهلة على الإطلاق.

بعد أن انتهى (هشام) من محاولة الوصول إلى طرف خيط يقوده إلى الفاعل الحقيقي وراء عمليات الخطف العديدة والتي لم تقربه خطوة واحدة من ذلك الشخص أمر الأمين (مجدي) أن يدخل أُسر الأطفال الذين تم اِختطافهم ليلة أمس.

خرج الأمين (مجدي) وطلب من أسر الأطفال أن يدخلوا إلى المكتب، تحرك

الجميع وتبعهم (يوسف) بجسد مرهق وعقل مرتبك، ظل يرمقه (مجدي) بغضب حتَّى دلف إلى الداخل.

أشار (هشام) للجميع أن يجلسوا وجلس هو خلف مكتبه ثمَّ قال:

- أنا طبعًا مقدر القلق اللي أنتوا فيه، بس لازم تعرفوا إني مش مقصر في حاجة، أنتوا شوفتوا بنفسكم الحملة اللي عملها القسم إمبارح والعيال اللي لمناهم من الشوارع، فيهم بلطجية وتجار مخدرات وسلاح وغيرهم، للأسف محدش فيهم كان ليه علاقة بخطف الأطفال، أنا بس كل اللي طالبه منكم تصبروا وإن شاء الله هرجعلكم ولادكم.

وقف الجميع في خيبة أمل من دون أن ينطق أحدهم بكلمة واحدة، اكتفى بعضهم بزرف الدموع بينما تحرك البقية كالسكارى يتخبطون، خرج الجميع ولم يتبقَ سوى الأمين (مجدي) الذي كان ينظر إلى (يوسف) الذي كان ما زال جالسًا ولم يتحرك من مكانه فقال مجدي:

- يا أستاذ يلا عشان نشوف شغلنا، يا أستاذ قوم روح وإحنا هنبلغك لو في جديد.

علم النقيب (هشام) أن ذلك الشاب ما زال تحت تأثير الصدمة ولم يستوعب عقله حتَّى الآن فقدان ابنته فأشار إلى (مجدي) أن يغادر المكتب ويتركهم سويًّا، أدى الأمين التحية العسكرية ثمَّ خرج من المكتب على مضضٍ.

وقف (هشام) وتحرك من خلف مكتبه ثمَّ جلس مواجها ل(يوسف) وقال:

- أصلان صح ؟ تشرب إيه؟

نظر يوسف إلى (هشام) بعين دامعة وقال:

- المفروض دلوقتي إني أقول لحضرتك قهوة وأشربها وأشكرك على تعبك وأروح أنام مطمن صح؟

تماسك (هشام) قبل أن ينفعل على من فارقت روحه جسده وأصبح ميت مع وقف التنفيذ وقال:

- انت شايفني قصرت لحد دلوقتي في أي حاجة ؟ أنا منمتش من إمبارح ولا هنام قبل ما أرجع عيالكم.

رسم (يوسف) ابتسامة حزن على شفتيه وقال:

- لا، أنا ممكن أساعدك لحد ما أرجع بنتي، أطلب مني أي حاجة أنا هنفذها، بيتني هنا في القسم معاك وخليني أطلع معاكم الحملات أنا موافق وجاهز بس أرجع مريم.

تنهد النقيب(هشام) وقال:

- مينفعش يا أصلان، ده مش قانوني.

انفعل (يوسف) وقال:

- وهو القانوني إنك تمسك شوية مجرمين وتعرض عليهم الصور وتصدق أنهم ميعرفوش حاجة عن العيال اللي اتخطفت، القانون بيقول نسيب حق عيالنا ونمشي ورا كلام الخارجين عن القانون ونصدقهم يا حضرة الظابط، أكيد واحد فيهم يعرف حاجة عنهم.

رد (هشام) مسرعًا وقد بدأ عليه الانزعاج:

- دي مش شغلتي يا يوسف دي شغلة النيابة إنها تحقق معاهم.

ارتفع صوت (يوسف) وهويقف:

- سيبنى معاهم ساعة واحدة وأنا أجيبلك كل المعلومات اللي أنت محتاجها.

انفعل (هشام) وهو يطرق بيده على المكتب ويقف مواجها ل(يوسف):

- قلتلك ده مش قانوني يا أصلان.

سقطت دمعة سهوًا من عين (يوسف) واستقرت أرضًا بجانب أحلامه التي ضاعت وقت ضياع (مريم)، لم يتحدث بعدها، حاول التماسك وعدم الانهيار ثمَّ تحرك في اتجاه الباب في أسى معطيا ظهره إلى (هشام) الذي قال:

- أصلان.

توقف (يوسف) قبل أن يخرج ولكنه لم يلتفت فأكمل (هشام):

- أرجوك سيبني أشوف شغلي ومتعملش حاجة تندم عليها بعد كده.

فتح (يوسف) باب المكتب ثمَّ خرج وأغلق خلفه الباب تاركًا (هشام) في الداخل منفعلًا ويطيح بكوب من الماء ليتهشم أرضًا ويتناثر زجاجه في كل أرجاء المكتب.

اِسودت السماء رغم تربع الشمس على عرشها، لم يرَ النور في ذلك اليوم فقد أَبَى الحضور بعد غيابها، فقط الظلام هو من أتى محملًا بالغضب، ترك قدماه تقوداه إلى حيث المجهول، صوتها ما زال يتردد في أذنه فيبكيه، ما زال أثر شفتاها على جبينه فتحسس موضعه، جسده يريد السقوط وعقله يأبى، تعلقت عيناه بالسماء وقالت كل شيء.

***

تجلطت الدماء على وجه وداخل عروقه وهو يصعد السلالم في صوعبة وألم، بلغ الخوف مبلغه وأصبح فؤاده هواء، وصل إلى باب شقته فوجده مفتوح، لا يريد أن يفكر في ما سيراه الآن، دفع الباب بيده وهو يبتلع ريقه، تقلصت أمعاءه وخفق قلبه، لم يجد أحد خلف الباب، ارتفع صوته مناديا:

- دعاء، كريم، آدم!!!!

كرر النداء وهويهرول داخل الشقه حتَّى وجد قدم زوجته الملقاة أرضًا تظهر على باب غرفة نومهم تغطيها الدماء، تساقطت الدموع عنوة وهرع إليها، دخل الغرفة وأضاء الأنوار، ثمَّ نظر إليها وبدأ في البكاء الشديد، اِرتفعت صرخته فرجت العقار، انحنى فوق جسدها العاري بعد أن تبادلوا عليه انتهاكًا واغتصابًا، أمسك قطعة قماش وغطى به زوجته التي فارقت الحياة بأصعب الطرق، تلك الرصاصة التي تحملها بمنتصف رأسها ما هي إلَّا رصاصة رحمة أتتها بعد توسل ورجاء، اِستباحوا جسدها ونفسها حتَّى توسلت من أجل الخلاص ونالته بصعوبة، احتضنها بقوة كادت أن تحطم عظامها البالية، توسل إليها كي تسامحه، شق الندم قلبه إلى نصفين، سمع صوت سعال قادم من الغرفة المجاورة، تذكر ولداه الصغيرين، ترك جسد زوجته غصبًا وهرول إلى أبناءه، وقع أرضًا ووقف من جديد حتَّى وصل إليهم، وجد واحدًا منهم ملقى أرضًا ينزف بغزارة، اِرتعد ووضع يده على مكان الجرح فوجده عميق، تألم الطفل وهو يفتح عينه فوجد أبيه الذي أتى متأخرًا فقال:

- بابا، أنت كنت فين؟ شوفت عملوا إيه في ماما وفيا؟

الدموع تنهال من عينيه على وجه الصغير وهو يقول محاولًا تهدأته:

- كريم، أنا هنا يا حبيبي، كل حاجة هتبقى كويسة، متتكلمش أنا هوديك المستشفى وهتبقى كويس، كل حاجة هتبقى كويسه.

رفع (شبل) ابنه بين أحضانه بينما الدماء ما زالت تغادر جسده الصغير، هرول به في اِتجاه الباب، أصدر الولد سعال من جديد وقال:

- بابا، أنا حاولت أبعدهم عن ماما بس مقدرتش، كانوا كتير، أنا حاولت أبقى راجل بس معرفتش، بابا أنا هربت آدم أول ما كسروا باب الشقة، قلتله يجري بعيد ويدور عليك.

تذكر (شبل) ابنه الصغير فقال:

- آدم، آدم فين يا كريم؟

تشنج جسد (كريم) وبدأ أنه يفارق الحياة بين يدي والده الذي جثا على ركبتيه وهو يقول:

- لا يا كريم، خليك معايا، كريم بص لبابا، أوعى تموت.

فارق الصغير تلك الحياة القاتمة بكل ما تحملها من شر وقسوة، أنهى أخر ساعاته يدافع عمن عجز والده عن الدفاع عنهم ودفع جزء من ضريبة لم تكنْ تخصه يومًا، جلس (شبل) بين جثتي ابنه وزوجته ينتحب، أخرج سلاحة الناري ووضعه داخل فمه وقبل أن يضغط على الزيناد توقف فجأة وقرر أن يؤجل رحيله من أجل (آدم) والثأر من (حمزة).

***

داخل مكتب وكيل النيابة (خالد) يقف (بِشر) وهناك عسكري يفك قيوده، يشير له (خالد) أن يقترب ويجلس ثمَّ يسأله بودٍ:

- سيجارة يا بشر؟

أومأ (بشر) بالموافقة فأخرج (خالد) واحدة من علبته وأعطاها إليه ومعها قداحة، أشعل (بشر) السجارة ونظر إلى (خالد) في اِنتظار سبب أحضارة من جديد، ثواني من تبادل النظرات بدأ بعدها (خالد) قائلًا:

- فكرت في اللي قلتهولك يا بشر؟

جاء الرد سريع ومباغت من بشر قائلًا:

- متتعبش نفسك يا خالد باشا، أنا معترف إن الفلوس والهيروين بتاعي.

وقف (خالد) وتوجه ليجلس أمام (بشر) وقال:

- أنا طلبت التحريات من المباحث ووصلني كل تفصيله في حياتك أنت وأهلك، أخوك هو السبب مش كده؟ أنت بتداري عليه ليه مش فاهم؟

ابتلع (بشر) ريقه وأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وقال:

- أخويا ملوش دعوة يا خالد باشا، أنا اللي بتاجر في المخدرات مش هو، أخويا بره الموضوع.

اِنفعل (خالد) وقال بصوتٍ مرتفع:

- متبقاش غبي، الكمية اللي معاك دي هتوصلك لحبل المشنقة.

اِرتعد (بشر) من الدخال وظهر أثر ذلك الخوف على ملامح وجه لكنه قال:

- الأعمار بأيد ربنا.

اِزداد (خالد) انفعالًا وقال:

- وهو ربنا قال إنك تموت نفسك عشان تحمى أخوك.

انفعل (بشر) وارتفع صوته ليظهر غضبه:

- أيوه أموت نفسي، عشان أنا كده كده ميت في البلد دي، أموت مرة أحسن ما أموت ألف مرة وأنا بتعدي سنين عمري في فشل وقلة حيلة، أنا اللي أتمسكت بالمخدرات وأنا اللي كنت بتاجر فيهم، أخوية ملوش دعوة حتَّى لو كان هوالسبب، أنا كان قدامي الاختيار واخترت ومعنديش كلام تاني أقوله.

مسح (خالد) على وجه في غضبٍ وقال:

- ماشى يا بشر، زي ما تحب، أنت يائس من الحياة، ده اختيارك وأنت حر فيه، أنا حاولت أساعدك وأعمل اللي عليا.

ارتفع صوت (خالد) أن يأتي أحدهم وإعادة (بِشر) إلى الحجز وتجهيز ترحيله للقضاء من أجل البت في أمره.

***

الكثير من الأرجل تمر بجانب الطفلة النائمة (مريم) أرضًا والبعض منهم يتنبه لوجودها بعد أن يدوس على أحد أطرافها، ما زال مفعول المخدر يسري بداخل عروقها، من بين كل هؤلاء المارة تمتد يد متسخة تعود إلى سيدة مخيفة الشكل لتحملها وتتحرك بها إلى آخر الرصيف ثمَّ تجلس وتضعها فوق فخذيها في وضع مؤلم لجسد الصغيرة، تخرج من داخل كيس أسود كبير بعضًا من عبوات المناديل الصغيرة ويرتفع صوتها بحزنٍ مصطنع.

- كيس منديل بجنيه يا بيه، كيس منديل بجنيه يا هانم، بربي يتيمة، بربي يتيمه، ساعد يتيمه.

ظلت على هذا النحو حتَّى أسدل الليل ستائرة وبدأت الطفلة في اِستعادة وعيها، أخرجت تلك المرأة قطعة قماش صغيرة ووضعتها على فم الصغيرة كي تعود إلى النوم من جديد ثمَّ هرولت بها عبر الشوارع الجانبية حتَّى وصلت إلى منزل يتوسط أحد الأماكن العشوائية الفقيرة، طرقت الباب بعدد معين من الطرقات ، فتح أحدهم شباك صغير ثمَّ نظر إليها، ثواني قليلة وفتح باب العقار وفور دخولهم أغلق خلفهم في وضع مريب.

أفاقت الطفلة (مريم) لتجد نفسها ملقاة أرضًا أسفل قدم سيدة ممتلئة الجسد ترتدي من الذهب ما يملئ ساعديها وصدرها، تمسك بخرطوم ممتد إلى قارورة زجاجية (شيشة) وتنفث دخانًا في وجهها، فزعت الصغيرة وحاولت أن تقف لكنها وقعت في عدم اِتزان، اِرتفع صوتها (بابا، ماما، أنتوا مين) اِرتفع صوت تكل السيدة وقالت معنفة للطفلة:

- اِنسى بقى بابا و ماما، هنا في ماما دلال بس، تسمعي الكلام تبقى حبيبة ماما، تقلي أدبك أو تحاولي تهربي هتبقي زي العيال الوحشة دي.

ثمَّ أشارت إلى عدة أطفال بهم بعض الحروق في أطرافهم وأوجههم، ارتعدت الطفلة وبدأت في البكاء فارتفع صوت دلال من جديد وقالت:

- أكتر حاجة بكرهها في حياتي هي العياط.

ثمَّ وقفت وصفعت الصغيرة التي تلقت الصفعة وتوقفت عن البكاء والتنفس معا، اِبتسمت (دلال) وقالت:

- أيوه كده، يا سيدة، أنتِ يا زفته، خدي البت دي أكليها ونيميها ومن بكرة تنزل الشارع.

كانت الصدمة تظهر جلية على وجه ونفس (مريم) التي تجمدت الدموع داخل عينيها خوفها من تلك الغولة وتنادي بقلبها على أبيها، تبعت (سيدة) في هدوء وانسياق حتَّى وصلت الى داخل غرفة وجلست في ركن بها في خوف كبير.

***

سيارة حديثة الطراز تقترب من باب فيلا في إحدى الأحياء الراقية، تقف السيارة على الباب الحديدي ثمَّ يفتح زجاجها لتظهر من خلفة المذيعة (نريمن صلاح) وتضغط على زر (الإنتركم) وتقول:

- أنا المذيعة نرمين صلاح بكر، الأستاذ وجيه غالي موجود؟.

يأتي صوت (وجيه) غالي وهويقول:

- أخيرا حنيتي عليا وجيتي، أنا مستنيكِ.

يفتح الباب وتتحرك السيارة إلى داخل أسوار الفيلا ثمَّ يغلق الباب، تسير السيارة حتَّى تقف أمام باب الفيلا، تهبط منها (نرمين) وتدخل عبر رواق كبيرة يحوي الكثير من التحف الفنية والأثاث الراقي، يقابلها أحد الخدم ويقول لها:

- وجيه باشا في الجنينه مستنيكِ.

تبتسم وتقول:

- شكرًا يا عم أحمد، ممكن طيب فنجان القهوة بتاعي؟

يومئ الرجل بالموافقة، تتحرك (نرمين) عبر الرواق الطويل حتَّى تصل إلى باب آخر يقود إلى مساحة خضراء كبيرة وتجد (وجيه) يجلس أسفل شمسية ضخمة تحمل إضاءة هادئة بداخلها تنير المكان بشكل جيد وهو يقرأ جريدة ويرشف من فنجان قهوة موضوع أمامه، فور أن رأها وقف وتحرك نحوها، احتضنها بشدة وهو يقول:

- أنا زعلان منك يا نرمين، يعني تبقى تربيتي وشغالة معايا في القناة بتاعتى ومعرفش أشوفك إلَّا كل شهرين مرة؟.

جلس الاثنين وقالت:

- والله غصب عني، أنت عارف غلاوتك عندي بس الشغل واخدني وأنت عارف الشغل عندي يعني إيه؟.

ابتسم (وجيه) وأخرج من أحد جيوب (الروب) الحريري الذي يرتديه علبة صغيرة أعطاها ل(نرمين) وهويقول:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا ستي، هدية كل سنة.

أمسكت (نرمين) العلبة وفتحتها لتجد خاتم من الذهب باهظ الثمَّن، ابتسمت ووقفت في اتجاه (وجيه) ثمَّ قبلته على جبينه وقالت:

- أنت دايمًا فاكر عيد ميلادي يا أونكل وجيه، أنت عارف إني مليش حد يفتكرني غيرك؟

ابتسم (وجيه) وقال:

- أنتِ ناسية إني أنا اللي مربيكِ بعد بابا وماما، صلاح أبوكِ كان صديق عمري

وشريكي وأنتِ اللي باقية من ريحته، أنا كمان مليش غيرك، أنا لا عيل ولا زوجه وكل اللي أنا فيه ده هيكون بتاعك لما أموت.

جاء الرد سريعاً من (نرمين):

- بعد الشر عليك، ربنا يقدرني وأردلك جزء صغير من جمايلك.

قال (وجيه) بصوت يحمل الجدية:

- طيب يا ستي أنا عاوز رد الجميل بقى، ينفع؟

قالت (نرمين):

- طبعًا وأنا جاهزة لكل اللي تطلبه.

اِعتدل (وجيه) في جلسته وأصبح مواجها لها وقال:

- أنا عاوزك تبعدي عن القضايا اللي ممكن تفتح عليكِ أبواب إحنا في غنى عنها يا نرمين، ابعدي عن قضايا الفساد خالص، رسالتك كأعلامية مش بس مهاجمة الفساد وسلبيات المجتمع، ممكن تتكلمي عن دور الثقافة والسياحة وتتكلمي عن مواضيع تانية عن الفن والميديا، عشان خاطري يا نرمين أنا مش عايز أخسرك زي أبوكِ زمان، أنا نصحته يبعد عن المشاكل بس هو صمم وكانت النتيجة موته هو وأمك، أرجوكِ متكرريش نفس الغلطة.

تحول وجه (نرمين) إلى الغضب عندما تذكرت الحادثة التي مات بسببها أمها وأبيها وكانت هي الوحيدة الناجية منها، علمت لاحقًا أنها كانت مدبرة من قبل رجال أعمال فسدة أرادوا الأطاحة بوالدها بسبب مهاجمته للفساد والحصول على مستندات تدينهم لكنه لم يتمكنْ من فضحهم، قررت بعدها أن تهب حياتها لمحاربة الفساد وساعدها في ذلك من تكفل بها صديق والدها المخلص(وجيه غالي)، عادت من شرودها بعد أن سمعت صوته يقول:

- قلتي إيه يا حبيبتي،عشان خاطري ابعدي عن الشر.

حاولت الابتسام مجاملة له وقالت:

- حاضر يا أونكل، حاضر هبعد عن الشر، بس بعد القضية دي وأوعدك بعدها هتكلم عن الفن أو الثقافة وهبعد عن قضايا الفساد.

ابتسم (وجيه) اِبتسامة صفراء وقال:

- أنا كنت عارف إن دماغك ناشفة زي أبوكِ، خلي بالك على نفسك وأنا جنبك لو احتاجتي أي حاجة.

وقفت (نرمين) ثمَّ قبلته على جبينه وقالت:

- أنا لازم امشي دلوقتي يا أونكل، عندي مقابلة مهمة مع حد هيفيدني في الموضوع ده، ادعيلي، وشكرًا بجد على الهدية اللي جت بدري عن وقتها زي كل مرة.

***

يفتح باب شقة ويدخل من خلفة (يوسف) وهو في حالة مزرية، ملابسه متسخة ووجه شاحب وجسد هزيل، يضع مفاتيحه أعلى منضدة ويتحرك باتجاه دورة المياه، تخرج (نور) وتتبعها (ملك) من غرفة النوم تقف أمام (يوسف) وتقول:

- مريم فين يا أصلان؟

لم يجيب (يوسف) عن سؤالها ويتحرك متفاديًا إياها فتمسكه من تلابيبه وهي تنهرة وتقول:

- أنت معندكش دم، راجع البيت من غيرها إزاي؟ أنت فاشل في كل حاجة وفاشل في حماية حتَّى بنتك وبيتك.

ينزع يدها في قسوةٍ فتتألم، يتركها ويدخل إلى دورة المياه ويغلق خلفه، تبكي (نور) فتحتضنها (ملك) وتحتول تهدأتها وتقول:

- براحة يا نور عليه، أنتِ مش شايفه شكله عامل إزاي، خلية يستريح عشان يشوف هيعمل إيه، أنتِ عارفه هو حزين قد إيه وأكيد مش مستني منك ده، أصلان طول عمره جدع وميستاهلش كل اللي بيحصله ده والله، ميستاهلش منك كده.

تنظر لها (نور) نظرة ذات معنى فتتنبه لها (ملك) فتبتعد عنها وتقول:

- أنا لازم أروح يا نور، هبقى أتصل أطمن عليكم.

الأبخرة تتصاعد من المياه الساخنة التي يجلس بداخلها (يوسف)، ترسم نارًا وشيطانًا، ترسم صورة لشخص مجهول يمقته بشدة، ترسم مريم ممسكة بيده، تتصاعد الأبخرة فتعبث بعقله المرهق، صوتها يتردد في كل أرجاء المكان، اِنعكاس صورتها يتأرجح على سطح المياه، جرحة ما زال ينزف من دون توقف، كتم أنفاسه وأغمض عينيه وترك المياه تغمر جسده وترك البخار يتلاعب بعقله.

(5)

"تختلف الحسابات مع كل معطيات جديدة تضاف إليها وتختل المعادلات مع كل طرف جديد ينضم لها، أطراف المعادلة تزايدوا والمعطيات أصبحت كثيرة للغاية، دون كل شيء في ورقة وحاول مجاراة الأحداث إن استطعت".

صوت الفأس وهو يرتطم بالأرض الصفراء يشق صدره ويدمي قلبه المحترق، ضربة تلو الأخرى حتَّى انتهى، حفرتان تتوسطان الصحراء الشاسعة، اِتجه إلى سيارته وأخرج جسد زوجته المغطى بالبياض الذي أحال قلبه إلى اللون الأسود، كشف عن وجهها ثمَّ نظر إليها نظرة أخيرة فانهمرت دموعه دون أن يشعر، تردد صوتها في أذنه وهي تنادي عليه "شبل، بحبك" تذكر تفاصيلها وابتسامتها، تعرق جبينه وارتفعت حرارة جسده، اِنتابته قشعريرة سرت بسائر أنحاء جسده، قبل جبينها ثمَّ حملها واتجه إلى الحفرة الكبيرة التي صنعها بنفسه لتكون قبر زوجته الدائم إلى أن يلتقوا، هو يعلم أن العتاب سيطول عند اللقاء لكنه يتمناه، تحرك بها مشتعل الجسد والعقل، وضعها أرضًا في أسى وتمنى أن يكون بدلًا منها، ظل يرمقها بحزنٍ كبير، أمسك المعول وبدأ في إلقاء التراب عليها وهو ينتحب وينهار من الداخل وينطق باسمها، صرخ وأخذ يردم الحفرة التي صنعها بسرعة وغل حتَّى انتهى، لكن الألم لم ينتهِ والجرح سيبقى مفتوحًا ينذف بغزارة والأصعب أن هناك جرح آخر يخص اِبنه، اتجهه إلى السيارة من جديد وفعل المثل مع اِبنه، آلم الظلام بكل جوانبه وهو ينظر إلى القبرين بغضبٍ، نظر إلى أعلى في استجداء، الألم فوق قدرة عقله لكن قلبه يتحمل، مر وقت طويل لم يشعر به، أبى أن يفارقهم لكن ما زال هناك أعمال عالقة وبعدها سيحفر حفرة بجانبهم ويظل معهم إلى الأبد، كل الذكريات ملحة لكن هناك وجه يحفظ كل تفاصيله "حمزة" هكذا همست شفتاه باسمه وصرخ به قلبه، تمنى أن يتذوق طعم دمائه، اِتجه إلى سيارته نظر في المرآة

إلى اِنعكاس صورته إلى عينيه بالتحديد، لم تكنْ عيناه بل كانت تخص شيطان ما ارتاح لوجودة وبشدة، أدار محرك السيارة واندفع بها قاطعًا الصحراء حتَّى وصل إلى طريق أسود ومصيرًا أشد سوادًا.

***

باب الشقة يفتح ويدخل من خلفه "يوسف" يبدوعليه الإجهاد الشديد، الظلام يعم الشقة لذلك ضغط على زر الإضاءة ليتبدد الظلام. ويجد "نور" جالسه في اِنتظاره، ما أن رأته حتَّى وقف وتوجهت نحوه بملامح تنذر بمشاجرة ما، تجاهل نظرتها وتحرك في اتجاه غرفة النوم فتبعته، خلع ملابسه وارتدى ملابس أخرى ثمَّ نظر إليها من جديد، لم يكنْ يتحمل المزيد من الضغوطات، لم يكنْ في استطاعة أن يتلفظ بكلمة واحدة، فالنفس تحمل فوق قدراتها لكنه من تسبب في كل ذلك وهي لم تكنْ لها ذنب، حاول التخفيف عنها فاقترب منها ونظر إلى عينها مباشرة، كانت تحمل الكثير من الخوف والحزن، حاول ضمها وطمأنتها لكنها دفعته بقسوة وارتفع صوتها بغتة قائلة:

- أنا عايزة اتطلق، طلقني يا أصلان، أنت ضيعت أغلى حاجة كانت بينا زي ما ضيعتنا كلنا قبل كده لما حكمت علينا نعيش في الفقر ده.

رصاصة أخرى أصابت القلب ولم يعد هناك متسعًا لجرح إضافي، تمالك نفسه واقترب منها من جديد، أراد تقبيل جبينها والاستقواء بها لكنها صفعته وقالت:

- مريم يا يوسف، أنت موت بنتنا، مريم زمانها ماتت وده كله بسببك.

لم يكنْ بمقدورة كبح الشيطان أذى يسري بداخله أكثر من ذلك فتركه يظهر، صفعها فأوقعها أرضًا وارتفع صوته صائحًا:

- مريم عايشة يا نور، مريم مامتتش، وأنا هرجعها زي ما ضيعتها، أنتِ فاهمه،

أنتِ عايزة مني إيه، بتلوميني على الظروف وبتلوميني على كل حاجة بتحصل، عايزة تطلقي أنا هطلقك بس بعد ما أرجع مريم، أنتِ فاهمة.

تركها تبكي أرضًا في حالة صدمة وغادر الغرفة ومنها إلى باب الشقة ثمَّ إلى الشارع وهو ينتوى أن يعيد اِبنته أيًّا كانت الطريقة لكنه لا يعلم من أين يبدأ.

***

أصوات سيارات الشرطة تقترب على أحد الأوكار التي تبيع المخدرات، يهرول الجميع في أماكن متفرقة بينما يحمل عدة أشخاص الأسلحة ويبدأون في إطلاق النيران على قوات الشرطة التي كانت تنتشر في كل مكان وتحاوط المكان بالكامل، الضابط (هشام) كان يتقدم الهجوم على ذلك الوكر بعد أن تحرى عن مكانة وعلم أنه موجود في تلك المنطقة منذ فترة كبيرة لكن جميع الضباط لا يخاطرون بالهجوم عليه لأنه دائمًا ما كان يتساقط ضحايا في كل مرة وبعد القبض على بعضهم وهروب البعض يعود ذلك المكان إلى سابق عهده، لكن تلك المرة قرر (هشام) أن يقبض عليهم جميعًا أو يهدم ذلك المكان فوق رأسهم بعد أن أخذ الموافقة من قائدة المباشر في القضاء على ذلك الوكر، بعد تبادل إطلاق نار كثير وتساقط عدة أفراد من الجانبين وكاد أن يصاب (هشام) بطلق تودي بحياته لكن حال دون حدوث ذلك تلك السترة التي يرتيدها، اِقتحم رجال الشرطة المكان بعد عناء شديد وتمَّ القبض على الجميع باستثناء طفل صغير كان متواجدًا في المكان وظل على مقربة حتَّى اِنتهى الأمر ثمَّ هرول وأخبر أحد ما أن الوكر هدم وتمَّ القبض على كل من كان به من تجار مخدرات ومتعاطون وتمَّ الإمساك بكمية كبيرة من مخدر (الهروين) وعدد كبير من الأسلحة النارية والبيضاء وعدد من المتفجرات ليس بالقليل.

حضرتك الإسعاف لنقل المصابين من الطرفين وبعدها أمر الضابط (هشام) أن

يهدم المكان بواسطة (لودر) ضخم هدم المكان بالكامل وتم وضع قوة أمنية كبيرة بدلًا منه حتَّى يؤكدوا على اِنتهاء ذلك المكان نهائيًّا وقد كان.

أحس (هشام) أنه فعل شيء صواب قد أطفأ النار التي بداخله ولو بالقدر البسيط، أمر القوات أن تتحرك بعد أن أتم مهمة لم يستطعْ كل من كانوا قبله أن يحرزوا بها تقدم، أخرج هاتفه وأجرى اِتصال إلى قائدة أخبره أن المهمة تمت بنجاح وأن ذلك الوكر كان بداية الخيط الذي يقود إلى الاستقرار الأمني في ذلك الحي الموبوء.

***

داخل ذلك المصنع المهجور يجلس (حمزة) داخل غرفته يشاهد عدة تسجيلات على هاتفة الجوال تخص أحد رجال الأعمال برفقة أحد الممثلات المشهورة بوضع مخل، ابتسم ثمَّ أغلق التسجيل وأخرج كارت الميموري الذي كان عليه التسجيل ووضعه داخل الخزينة التي يضع بها كل شيء هام يمكن اِستخدامه عندما يحين الوقت لذلك، ضغط على زر تشغيل الهاتف الجوال وانتظر أن يفتح، تحرك بتجاه البار وصب كأسًا تجرعة على دفعة واحدة، سمع صوت هاتفه يرن، اِتجه إليه وأجاب ليجد أحدهم يخبرة أن أهم مكان لبيع المخدرات الذي كان يعمل لصالح (حمزة) قد تمَّ اقتحامه، ظهرت معالم الغضب على وجه ثمَّ قال:

- وده حصل امتى؟

استمع إلى ما يقال فأنفعل أكتر وقال:

- والرجالة أخبارها إيه؟

إجابة المتصل قائلًا:

- نصهم اتصفي يا حمزة باشا والنص التاني اتقبض عليه.

اِرتفع صوت حمزة قائلًا:

- ومين الظابط اللي عمل كده يا حيوان؟ وأنت كنت فين أنت ورجالتك؟

جاء الصوت مرتعدًا:

- اسمه هشام عبد الهادي يا حمزة باشا، وأنا والرجالة اللي تبعي كنا بنستلم شحنة جديدة من الهنجر وعرفت لما رجعت باللي حصل وبلغتك عالطول.

صاح (حمزة) قائلًا:

- عايز كل المعلومات عن الظابط ده، ساكن فين؟ ومسنود من مين في الداخلية؟ وليه حامي علينا أوي كده، أنت فاهم؟

أغلق (حمزة) الهاتف في وجه الرجل واتجه إلى البار من جديد ثمَّ صب كأس تجرعة وفعل ذلك لعدة مرات متتالية ثمَّ أمسك بهاتفه وكتب رسالة مضمونها (في كارت أسود اِتحرق، الكارت ده كان ولد في الكوتشينة، بس الدور لسه شغال واللعب هيشد أكتر وفي جوكر جديد دخل اللعبة قريب هتسمع إنه انتهى دورة) ثمَّ ضغط إرسال إلى رقم يحمل (أكمل باشا).

ترك هاتفه واتجه ليجلس أمام الشاشة التي تعرض كل جوانب المصنع من الخارج والداخل وأخرج سلاحة الناري ووضعه أمامه على المكتب ورفع قدميه ووضعهما فوق المكتب ثمَّ توجه إلى سلاحة الناري من جديد وشد أجزائه بحركة توحي بالقلق الدائم والتوجس.

***

في مكتب فخم الأثاث والديكورات ، هناك عدد لا بأس به من التماثيل الفرعونية الموضوعة بجانب بعض على شكل صف ما عدا واحد ممسك به رجل "في منتصف الخمسينات أنيق المظهر، صاحب شعر أبيض مختلط بالسواد وجسد رياضي متناسق" ويمسك بهاتف يتحدث عبرة.

يمسك التمثال وينظر له في إعجاب شديد ويقول:

- لما "مروان العويني" يقول كلمة يبقى قدها مش زي ناس تانية الله يرحمهم بقى، البضاعة معايا كاملة وأنت متعرفش أنا خسرت رجالة وفلوس قد إيه عشان أعرف أجيبها، بس مش خسارة فيك وفي الفلوس اللي بتمنهم هجيب رجاله أكتر من اللي راحوا وفلوس تفتحلي المقفول.

يستمع بحرص إلى من يتحدث ثمَّ يقول:

- لا أقل من 3 مش هوافق دول مطلوبين في كل مكان بالاسم.

يستمع لتتغير ملامحة إلى الابتسامة ويرد:

- لا جنية إيه يا راجل دة بقى في النازل أنا عاوز الحمام الأخضر اللي بيطير في أي حتة من غير ما حد يقوله لا.

يبتسم ويصدر ضحكة ثمَّ يغلق الهاتف وهو ممسك بالتمثال الفرعوني الصغير ثمَّ يقبله ويضعه بجانب الآخرين بسعادة بالغة.

أنهى المكالمة ووضع الهاتف جنابًا ثمَّ أمسك بسيجار ما موضوع أمامه وأخرج القداحة، أشعله وبدأ في أخذ نفس منه وهو منتشي وما زال ينظر إلى التماثيل الفرعونية.

فتح باب مكتبة على مصراعية لتظهر من خلفه شابة "شقراء الشعر الطويل، بيضاء البشرة، متناسقة الجسد ترتدي قميص نوم أحمر اللون ضيق يفضح أكثر مِمَّا يستر" تقدمت نحو (مروان) بدلال أنثوي متقن جعله يترك السيجار جانبًا ويشير إليها كي تقترب وتجلس على رجليه، فعلت ما قاله وارتمت بين أحضانه، ظلًّا يتبادلان القبل الحارة ثمَّ وقفت هي واتجهت إلى منضدة قريبة وأمسكت بكأسين صبت بداخلهما سائل لونه أحمر يعشقه الشيطان واتباعه ثمَّ أعطت واحدًا ل(مروان) الذي اِبتسم لها وقال:

- أنتِ عارفه يا هند إيه اللي مخليني متمسك بوجودك في حياتي رغم إني مش محتاج لده؟

ابتسمت وعادت إلى حضنه من جديد وقالت:

- أنا عارفه إنك مش بتحب حد غير نفسك بس ممكن عشان الثقة مثلًا؟

ارتفع صوت ضحكته ثمَّ قال:

- أنا عمري ما وثقت في حد يا هند، اللي مخليني عاوزك في حياتي يا هند هو إنك شبهي، أنا بدأت من الصفر وخرجت من بلاعة الفقر وتعبت لحد ما وصلت للمكان ده وقاعد على رجلي واحدة بجمالك رغم أن الفرق بينا سنين كتيرة وأنا متأكد إنك مش راضية تكوني هنا، أنا كمان كنت في مكانك كده مع ستات كبيرة ووحشين سواء كان برضايا أولًا، لحد لما جه الوقت المناسب وبقيت مروان العويني.

قبلته (هند) بشغف ثمَّ نظرت إلى عينه وقالت:

- ومين قالك إني مش عايزة أبقى هنا؟؟

ثمَّ وقفت وخلعت القميص ليقع أرضًا ويظهر جسدها المثير عاريًا أمامه، نظر لها بشهوة مفرطة ثمَّ تجرع الكأس على دفعة واحدة ووقف ليسقط هو الآخر ملابسه، ثمَّ اِعتلاها بقسوة لتعم الفوضى المكان ما بين تأوهات جسدية وصرخات نفسية وقد بارك الشيطان فعلهما بابتسامة رضا تقود إلى الظلام.

***

فيلا شديدة الحراسة محاطة برجال مسلحين وكاميرات مراقبة في كل مكان وبداخل تلك الفيلا وبالأخص داخل مكتب رجل الأعمال "أكمل" يجلس ومعه صديقه في البيزنس المشبوه "وجيه غالي"الذي كان يتحدث عبر الهاتف إلى المذيعة "نرمين" ثمَّ أنهى المكالمة وجلس على أحد الكراسي المريحة، نظر له "أكمل" وقال:

- لسه برده دماغها ناشفة ومش عايزة تسمع الكلام؟

تنهد "وجيه" وقال:

- لسه، بس أنا هديها فرصة تفكر وتتراجع عن الهبل اللي عماله تعمله ده وبعد كده هتشوف مني الوش الحقيقي بجد حتَّى لو وصلت إني أقتلها.

اِبتسم "أكمل" وقال:

- والله أنا بخاف منك ساعات يا أخي، أنت معندكش أي حد غالي أبدًا، مش هي دى اللي أنت ربتها بنفسك وقلتلي إنك بتحبها وبتخاف عليها؟

تغيرت ملامح (وجيه) وظهر الشيطان الذي بداخله وقال:

- أنا مكدبتش عليك، أنا فعلًا بحبها بس بحب نفسي أكتر بكتير وبخاف عليها بس برده بخاف على نفسي أكتر، وفعلًا لو حسيت أنها قربت وبقت مصدر تهديد هخلص منها خالص.

اِقتضب وجه "أكمل" وقال:

- أنت شاكك أنها وصلت لحاجة؟

مسح "وجيه" على وجه وقال:

- لا معتقدش، بس نريمين تربيتي، مبتتكلمش من فراغ، أكيد في حد قدر يوصل لطرف خيط وهيبدأ ينخرب ورانا، أنا وأنت ومروان العويني.

ظهرت معالم الخوف جليه على وجه "أكمل" وظل يفكر لدقائق ثمَّ قال:

- لا كده الموضوع ميطمنش، خلي بالك يا وجيه، اه صحيح هو فين مروان؟ أنا اتصلت بيه من بدري ومبيردش.

قال وجيه بخبثٍ:

- تلاقيه مع البت الحلوة دي اللي اِسمها هند، أنت عارف مروان بيموت في الستات ودي بأمانة مش خسارة فيها أي حاجة.

اِرتفت ضحكة الاثنين وأخذا يكملون حديثهم عن تجارتهم المشبوهة في الأعضاء والمخدرات وتجارة الآثار.

***

حل الظلام والتهم القلوب المعذبة، وعلى احد الطرق يسير "يوسف أصلان" على أحد طرفيه وهو ينظر إلى كل طفل صغير ويتمنى أن تكون "مريم" وفي كل صوت يسمعه يرفرف قلبه ويملاه الأمل ثمَّ يغزوة الحزن والعجز عندما يخيب ظنه ويتبين من مصدر الصوت فلا يجده يخص ابنته، أنهكت روحه وأحس أنه أصبح أكثر الخلق ظلمًا من القدر لكنه كان مخطئًا فعلي الطرف الآخر من نفس الطريق يسير "شبل" باحثًا عن اِبنه "آدم" يحمل نفس الألم والجراح، يحمل نفس الأمل والشوق، يحمل نفس الغضب والحزن، وفي نقطة ما تلاقى الاثنين وتلاقت أعينهم للحظات، قبل أن يفترقا من جديد كل في طريقة لاعنين القدر وحكمه ولكن يبدو أن للقدر رأي آخر ومصير واحد يجمعهم سويًا.

(6)

"عندما يجتمع الشيطان مع الإنسان في اِرتكاب جريمة ما فسيكون من المجهد حل معادلتها الصعبة، الأمر أشبه بطلاء أسود يدهن فوق طلسم سفلي على حائط داخل قبر معتم ويتحتم عليك إيجاده في وقت قصير، لكن لكل بداية نهاية ولكل مشكلة حلها إذا اخترنا الشخص المناسب والوقت المناسب لفعل ذلك، أنه قدر، والقدر نافذ لا محاله".

داخل مكتب النقيب (هشام) الذي يجلس خلف مكتبة واضعًا السلاح أعلاه ومشمر عن ساعديه في تهديد واضح لمن هم يصطفون أمامه في خوف وتوجس، صف كامل من المجرمين والمسجلين خطر ومنهم من تسبب في أضرار بليغة لأطفال وكبار وللمجتمع أجمع، منهم من تاجر بالمخدرات ومنهم من تاجر بالسلاح وآخرين سرقة ونصب لذلك كان عليه أن يقضي على ذلك المستنقع العميق قديم الوجود، كانت ليلة عصيبة على الجميع، مات من مات وأصيب الكثيرون ومن تبقى من ذلك الوكر يقفون أمامه الآن.

وقف وتحرك باتجاههم يكن لهم كل غضب واستياء، يريد إعدامهم الآن رميًّا بالرصاص لكنه يعلم الحقيقة، هم ليسوا إلَّا أتباع، ذيل الثعبان المختبئ داخل جحر حصين، دروع بشرية رخيصة الثمَّن، لذلك كان عليه أن يتحلى بالصبر حتَّى يصل إلى الشيطان الأعظم.

الأول كان يحمل علامة ممتدة على طول وجهه العابس، نظر إلى داخل عينه فلم يجد سوى الكثير من الجمر المشتعل والكره الدفين داخل قلبه، سأله:

- اسمك إيه؟

إجابة بصوت جهور:

- علي

اِرتفع صوت النقيب (هشام) قائلًا:

- اسمك بالكامل يلا.

ارتعد وقال مسرعًا:

- على عبد النبي عمران، والشهرة على الديلر يا باشا.

ظل (هشام) ينظر إلى عين (علي) ثمَّ أخرج عدة صور من جيبه وعرضها عليه وهويقول:

- تعرف الأطفال اللي في الصور دي يلا؟

نظر (على) بتوجس وزعر إلى الصور التي كانت تخص بعض الأطفال من بينهم (مريم) ثمَّ قال:

- لا يا باشا والله، أنا مش بتاع خطف، أنا ببيع مخدرات بس والله مش بتاعتي، أنا ببيعها بس.

اِرتفع صوت (هشام) وهو يمسك بتلابيب (علي):

- أمال بتاعة مين يا ديلر؟، انطق.

أرسل (علي) عينه في اتجاه الأرض ولم يرفعها من جديد وقال:

- مقدرش أقول يا باشا، مقدرش.

حاول (هشام) أن يتمالك نفسه قبل أن يفتك به، هدأ ثمَّ قال:

- يا علي أنت لازم تتكلم، لو تعرف حاجة عن العيال دي أنا هساعدك في القضية التانية بتاعة المخدرات اللي شكلك هتلبسها لوحد لومتكلمتش.

لم يتفوه (علي) بأي كلمة أخرى، علم (هشام) إن ذلك الشخص لن يتحدث تحت أي ضغط، تركه وتحرك إلى من بجوارة، فعل معه المثل من دون جدوى، ثمَّ الذي يليه والذي يليه حتَّى انتهى الصف، كلهم لا علاقة لهم بخطف الأطفال،

جميعهم شباب ضل الطريق ثمَّ سقطوا في حفرة ممتلئة بالوحل الأسود، خدوعوا بالنقود التي كانت مصدر شقائهم، والآن خسروا كل شيء.

قضى ساعات محاولًا وبكل الطرق التوصل إلى من الشيطان الذي يحتمي بهم ويتحكم فيهم، علم أن لكل واحدًا منهم ما يخسرة وأن ذلك الشيطان يعلم ما يخيفهم حقًا، بائت كل محاولاته بالفشل فقرر إنهاء التحقيق وإرسالهم إلى النيابة من أجل اِستكمال الإجراءات، وها هو الشيطان يفدي نفسه من جديد كما يفعل دائمًا.

***

داخل فيلا (وجيه غالي) تتحرك (نرمين) مسرعة إلى حيث يجلس وبيدها بعض الملفات وعلى وجهها نظرة اِنتصار ونشوة، أرادت أن تخبره أخيراً أنها توصلت لطرف الخيط الذي سيقودها بدوره إلى هؤلاء المسوخ، عدة خطوات تفصل بينهما وما أن رآها حتَّى رسم اِبتسامة على محياه ووقف مقبلًا لها ثمَّ أجلسها بجانبه في نفس اللحظة التي وقعت عينه على تلك الملفات، أخبر الخادمة أن تجلب لهما فنجانين من القهوة وجلسا يتحدثان.

انتهى (وجيه) من آخر رشفة من القهوة وقال:

- شايف على وشك ابتسامة أنا حافظها كويس، مبشوفهاش إلَّا لما بيكون في إنجاز جديد عملتيه والإنجاز ده شكله في الملفات دي، صح؟

اتسعت بسمتها وقالت:

- صح، ما أنا تربيتك وأخدت منك طريقتك في الشغل، الملفات دي جواها بلاوي يا أونكل وجيه.

تمسك (وجيه) بصعوبة بتلك الابتسامة التي رسمها على وجهه، وهو يعلم في قرارة نفسه أن تلك الملفات هي الورقة الأخيرة التي ستلقيها (نرمين) في علاقتهما،

يكره أن يؤذيها ويكره أكثر من ذلك أن يكون هو المتسبب في ذلك الأذى، لكنه عازم على إكمال ما بدأ تحت أي ظروف وبخلاف أي تضحيات، قلبه يظل أسودًا حتَّى ولو كان بداخله نقطة من النور فما زال إبليس يحمل تلك النقطة لكنه عازم على إكمال ما بدأ وقد تشابها في ذلك.

قال:

- احكيلي يا نرمين.

أمسكت بأول ملف وأعطته إليه وهي تقول:

- شبكة كاملة بتتاجر في الأعضاء البشرية وبالأخص الأطفال ونفس الشبكة دي بتتاجر في المخدرات والسلاح والآثار، المعلومات دي لسه سطحية أنا عارفه بس صحيحة، أنا متأكدة، أنت عارف أنا لما بكون متأكده من حاجة بتطلع صح، زيك.

اِنفعل (وجيه) وألقى بالملفات على منضدة أمامه وقال:

- لا مش زي، أنتِ عايزة إيه يا نرمين بالظبط ؟ إحنا مش أتكلمنا في الموضوع ده قبل كده وقلتلك ابعدي عن المشاكل؟ امتى هتسمعي الكلام؟ أنتِ عايزة تموتيني ناقص عمر؟

وضعت (نرمين) يدها على كتف (وجيه) مهدئة لها بعد أن ظهرت عليه معالم الانفعال الشديد واحمر وجه، أمسكت بكل الملفات وألقتها أرضًا وهي تبتسم وقالت له:

- بعد الشر عليك، وأدى الملفات، متزعلش نفسك، أنا عارفه إنك بتخاف عليا، بس أنت اللي مربيني وأنت اللي علمتني إني أعمل الصح دايمًا، وده الصح وأنت عارف، أنا مقدرش أوعدك إني هسيب الموضوع ده، بس أقدر أوعدك إني هأجله شوية، اتفقنا؟

هدأ (وجيه) نسبيًا وقال:

- المشكلة إني عارفك، بس ما دام هتأجلي يبقى تعالي نسافر كام يوم كده نغير جو في المكان اللي تحبيه وننسى شوية ضغط الشغل.

قبلته على جبينه بود وقالت:

- ماشي.

***

أكمل أكثر من 20 ساعة سيرًا على الأقدام، ما زال يبحث في الوجوه عن (مريم) ما زال قلبه يخفق في كل مرة يعتقد بها أن تلك الطفلة هي (مريم) للشبه الكبير بينهم ، ثمَّ يعود للظلام منكسرًا بعد أن يكتشف أنها طفلة أخرى، يتمنى أن تنتهي مأساته بانتهاء حياته الآن، فكر أكثر من مرة أن يلقى بنفسه أمام إحدى السيارات المسرعة لكنه ما زال متسمسكًا بأمل اللقاء، يعلم إنها ما زالت هناك تؤمن إنه يبحث عنها وإنه سيجدها ويعود بها إلى المنزل حيث الدفء والأمان، حيث مكانها الطبيعي بين أحضانه وتحت رعايته، أصبحت قداماه لا تقويان على حمله فجلس أعلى الرصيف كأنه يبحث عن موطنه، أحس بهزة ما صادرة من هاتفه الجوال، أخرج الهاتف من جيب بنطاله ليجد رقم مديرة في العمال، لم يجيب في بادئ الأمر ومع تكرار الاتصال وتكرار تجنب الرد أتت إليه رسالة تحمل في مضمونها إنه تم رفده عن العمل نهائيًا، سهم آخر يضيف جرح إلى جراحه، حاول الاتصال بمديرة كي يرجئ ذلك القرار لكنه لم يجيبه، كرر المحاولة من دون جدوى، نظر السماء في استجداء ثمَّ وضع هاتفه في جيبه وأكمل طريقه المظلم إلى حيث لا يعلم ولا يريد.

***

داخل مكتب (أكمل) يجلس وبرفقته (مروان العويني) والمحامي (رشاد) ويقف بالقرب منه (حمزة)، أشار (أكمل) إلى (حمزة) أن يصب بعضًا من ال(ويسكي) للجميع، تحرك وقلبه يشتعل من طريقة (أكمل) في معالمته كخادم، صب للجميع وأعطاهم الكؤس كذئب مستتر بقناع كلب وفي لمالكه، وضع الكأس في يد (أكمل) الذي نظر له بابتسامة ذات مغزى وقال:

- مش سهل عليك أنا عارف، بحب الشخصيات إلى زيك وبحب أكتر يكونوا في صفي مش ضدي، عشان مزعلش عليهم بدري.

ابتسم (حمزة) وحاول التحدث فقاطعة (أكمل) قائلًا:

- المهم، دلوقتي حمزة بلغني أن في ظابط جديد طلع لنا فجأة كده من تحت الأرض اسمه هشام عبد الهادي، المهم إنه خسرنا تقريبًا أكتر من 100 راجل وحوالي 5 مليون جنيه في أول أسبوع ليه فى المنطقة دي، حد هنا يعرف سكة ممكن ندخله منها ولا هيجبرنا إننا نصفيه؟

ثمَّ نظر إلى (رشاد) وقال:

- إيه رأيك يا متر؟ ليك سكة ولا أخلي الميت يتصرف وحلال عليه المليون جنيه؟

لمعت عين (رشاد) عند سماع المبلغ وقال:

- لا أكيد ليه سكة بس تكلفة السكة برة المليون جنية يا باشا.

أصدر (مروان) ضحكة مرتفعة الصوت وقال:

- منشار كبير، مش ممكن يا رشاد بجد أنت أكتر واحد شوفته في حياتي بيحب الفلوس.

ابتسم (رشاد) مجاملًا وقال:

- ومين مبيحبش الفلوس يا مروان باشا؟

تدخل (أكمل) في الحديث قائلًا:

- بس دة خطر، دة خطر جدًا يا مروان مش كده؟

قال تلك الجملة ثمَّ نظر إلى (مروان) ثمَّ إلى (حمزة) تجهم وجه الجميع بينما لمعت عين (حمزة) وأحس أن دوره قد حان الآن في الصعود أعلى خشبة المسرع، كشف عن سلاحة الناري الموضوع أسفل سترته وسحبه من المكان الخاص به وتحرك ببطء حتَّى أصبح خلف الكرسي الذي يجلس عليه (رشاد) الذي أحس بالخطر يقترب منه، ابتلع ريقه وظهرت عليه معالم التوتر والخوف، قطرات العرق اِنسابت على جبينه رغم وجود مكيف الهواء، حاول التحدث فوجد فوهة المسدس أصبحت ملاصقة برأسه من الخلف فصمت، شد (الميت) أجزاء المسدس اِستعدادًا لقتله، أشار له (أكمل) وقال:

- استنى يا حمزة، اصبر كده، المتر بتاعنا مش كده يا متر؟

أومأ (رشاد) برأسه موافقًا على ما قاله (أكمل) الذي قال:

- ماشي، هعمل نفسي مصدقك، أصل أنا لو صدقت غير كده يبقى الله يرحمك، متخفش يا متر، أنا الموت أسهل عقاب عندي، خلاص يا حمزة شيل المسدس.

رفع (حمزة) المسدس من فوق رأس (رشاد) ثمَّ عادل ليقف بجانب (أكمل) ووضع السلاح مكانه، ظل الجميع في حالة صمت مخيف وترقب، لم يتحدث أحد لعدة ثواني أنهاها (أكمل) قائلًا:

- خلص موضوع الظابط ده يا متر ويا ريت تسلملي على (بهاء فوزي) لو شوفته، وأنا معتقدش إنك هتشوفه صح؟

رد (رشاد) مسرعًا:

- صح، صح يا أكمل باشا.

قال تلك الجملة ثمَّ وقف وغادر مسرعًا وتبعه (حمزة) بإشارة من (أكمل) وفور خروجهم أصدر (مروان) و(أكمل) ضحكة مرتفعة وارتطتم الكأسين ببعضهم البعض.

***

اِمرأة متسخة الملابس قبيحة المنظر تمسك بيد (مريم) بقوة وتجرها عبر الشوارع وإشارات المرور وتحاول بيع المناديل وهي تقول:

"ساعدوني يا أهل الخير، بجري على بنتي المريضة" وتخرج عدة أوراق زائفة تحاول إيهام به المارة وأصحاب السيارات، ظلت تفعل ذلك لعدة دقائق جنت بهم مبلغ مالي غير بالقليل، سحبت خلفها (مريم) بقوة وأجلستها أعلى الرصيف ثمَّ جلست بجانبها تحصى ما أعطى لها، نظرت إلى الصغيرة شاحبة الوجه، أخرجت من كيس بالستيكي أسود نصف رغيف، اقتطعت منه جزء صغير وأعطته للصغيرة التي أكلته بنهم، اِحمرت الإشارة فوقفت السيدة كمن أصابها النار وجذبت (مريم) معها فواقعتها أرضًا واتجهت إلى السيارات من جديد وفعلت ما تعتاد عليه، بكت (مريم) وأحست أنها محاطة بشياطين وقد تملك الخوف منها.

***

الظلام يحمل بين طياته الشيطان بخطواته الثقيلة في اتجاه المصنع في ذلك المكان النائي، الصحراء تزيد الأجواء رهبة وبرد، يخرج (حمزة) علبة السجائر من جيبة ويشعل واحدة وهو يدندن بنغمة ما وعلى مسافة قريبة منه يجلس (شبل) مختبئًا بالظلام، يتربص به ويشهر سكينًا تاهبًا للحظة المناسبة التي ينتظرها قلبه الذي تفحم ألمًا، وصل (حمزة) أمام باب المصنع الحديدي، فتحه وأحس أن أحدًا ما يراقبه، وضع يده على مكان سلاحة الناري تحسبًا لأي حركة مفاجأة، خطوات تقترب منه، التفت مسرعًا شاهرًا سلاحة ليجد أنه أحد رجاله مصاب بطلقة في

الكتف وقد أتى ليحتمي به، نظر إليه ثمَّ أشار له أن يدخل وأغلق خلفه الباب الحديدي الضخم، ضغط (شبل) بقوةٍ على مقبض السكين حتَّى أصاب يده، تراجع واختفى داخل الظلام في انتظار الوقت المناسب لإخماد النيران المتأججة داخل عقله وصدره.

(7)

"الفقد هو أكثر أنواع التعذيب إيلامًا، يتركك تتخبط في الأوجه من حولك وتحاول جاهدًا قدر اِستطاعتك التمسك بأمل بالي لا طائل منه، وتظل ماكثًا في تلك الدوامة حتَّى تغرق أو ينتشلك أحدهم صدفة ثمَّ تلقى بنفسك بداخلها من جديد، هو ألم متجدد وجرح لا ينضب أبدًا"

دلف إلى داخل شقته وأغلق خلفة الباب في هدوء، أضاء نور ضعيف كي لا يوقظ زوجته (نور) وتبدأ في اِفتعال المشاكل من جديد، هو لديه ما يكفي منها وما يفيض، خلع حذائه الذي تسبب في ألم كبير لقدمه المنهكة من كثرة المشى، اِتجه إلى غرفة نومه ولم يجدها، بحث عنها في جميع الغرف ولم يجدها، علم أنها تخلت عنه مثل الجميع، هكذا هي المصائب لا تأتي إلَّا مجتمعة مؤذية للنفس كأمطار غزيرة لا تعلم متى بدأت ومتى ستنتهي وما يزيد الأمور سوءًا هوعدم اِمتلاكك لمظلة تقيك إياها فتتحملها على رأسك وسائر أنحاء جسدك.

جلس أعلى فراشه يستريح ويفكر بما تبقى له من عقل، ضاقت كل السبل وتقطعت الأسباب، اتفق الجميع على دفنه حيًّا وسلب كل شيء في أيامٍ معدودة، عزيمة أبطل مفعولها وخزان قوته جف للتو، الحياة تنساب من بين ضلوعه شيئًا فشيئًا من دون أن يشعر، الوقت متوقف منذ أن سرقت فرحته، منذ أن اِختفت بسمة وسبب وجوده، منذ أن فشل في حمايتها (مريم)، ها قد بدأ النزيف من جديد، كلما تذكرها بكى قلبه قبل أن تتبعه عيناه، كلما تذكر ملامحها اِشتعل صدره واعتصرته ضلوعه، كلما تذكر بسمتها وصوتها تفتت كبده وتقلصت أمعاءه، أحاط به الظلام ووقف الشيطان أعلى رأسه يتلاعب به كيفما يشاء حتَّى غلبه النوم إرهاقًا وألمًا.

فتح عينيه في ذعر ناطقًا باسمها (مريم)، صوت هاتفه الجوال يتعالى داخل جيب بنطاله، بحث عنه بلهفة في كل ملابسه حتَّى وجده، نظر إلى شاشة الهاتف

ليجد رقم النقيب (هشام) ظاهرًا، تدفقت داخل عروقه كمية كبيرة من الأدرنالين فضغط على ذر الإلغاء عن غير عمد من كثرة توتره، لأم نفسه وحاول تهدئه أعصابه، أصدر هاتفه رنه من جديد، أجاب مسرعًا ليجد صوت النقيب (هشام) عبر الهاتف قائلًا:

- يوسف، في خيط جديد ظهر في قضية خطف (مريم)، إحنا فرغنا كل الكاميرات القريبة من مكان الخطف وشوفنا اللي خطفها.

اِرتفع صوت (يوسف) قائلًا:

- مين يا هشام بيه؟ طب ما تقبضوا عليه.

رد (هشام) قائلًا:

- للأسف اللي خطفتها كانت لابسة نقاب خافي كل ملامحها ومعرفناش نحدد هي مين ، خطفت مريم ووقفت توك توك وركبته وجرى بيها بسرعة.

انفعل (أصلان) صارخًا:

- يعنى إيه؟ يعني برده مش هنعرف نجيبها، أمال إنتوا بتشتغلوا إيه؟

اِرتفع صوت (هشام):

- استنى واسمع كلامي لحد الآخر يا أصلان، إحنا شغالين ليل ونهار عشان نقدر نوصل لحل، اسمعني كويس، ظهر في انعكاس مراية التوك توك وش السواق وقدرنا نحدد هومين، أنا بكلمك عشان كده، أنا بعت قوة تجيبه وخلال ساعة هيكون واقف قدامي، تعالي أنا عايزك تحضر التحقيقات معايا، بس هتلتزم الصمت وهتسيبني أشوف شغلي.

قال تلك الكلمات وأنهى المكالمة، نظر (يوسف) إلى أعلى وانهمرت دموعة فرحًا بعد أن شعر أن هناك أمل يحلق في الأفق، وقف مسرعًا واتجه إلى خزانة

الملابس، أخرج ملابس جديدة اِرتداها على عجالة ثمَّ توجه إلى باب الشقة وغادر كهفه المظلم.

***

سيارة تقف وتهبط من داخلها (هند منصور) بملابس بيضاء مثيرة، تتحرك بخطوات بطيئة وكعب يتعالي صوته باتجاه إحدى صالات مطار القاهرة، تجتر حقيبة سفر كبيرة نسبيًّا وبيدها جواز السفر، تقترب من مكان التفتيش فيوقفها أحد الضباط ويبدأ في الاطلاع على هويتها ويفتح حقيبتها، تظهر ملامح الخوف عليها رغم اِبتسامتها الساحرة وهي تمسح بعينها المكان بالكامل بحاثة عن أحدهم، تطمئن وتهدأ ملامحها عندما يقع نظرها على أحد الضباط وهو في طريقة إليها، يضع يده على كتف الضابط الآخر ويهمس بأذنه فيرتفع صوته قائلًا:

- تمام يا أنور باشا.

ثمَّ يغادر، يبتسم الضابط (أنور) الذي يرتدي بدلة تحمل نسرين فوق كتفه، يبدأ في تفتيش الحقيبة وهو ينظر إلى (هند) بشهوة ظاهرة على ملامحة، يفتش جيدًا داخل الحقيبة حتَّى يجد ملمس غريب في أسفل الحقيبة، تتغير ملامحة وينظر إليها من جديد، يفتح جيب خفي داخل الحقيبة، ليجد تمثال فرعوني جميل المظهر، يزيحه جانبًا ويبحث عن شيء ما حتَّى يجد ورقة ما، يفتحها ليجد شيك بملغ كبير ومدون عليه اسمه (أنور فرحات)، يمسك به ويغلق الجيب ويضع كل شيء في مكانه ثمَّ يضع الشيك بجيبه ويمسك بجواز السفر الخاص بها ويقول:

- أنتِ مسافرة إيطاليا!!! جميلة إيطاليا برج بيزا وروما، جميله إيطاليا وفلوس إيطاليا، استمتعي، مع السلامة.

يغلق الحقيبة ويعطيها جواز السفر، يشير إليها أن تعبر، تبتسم وتتخطاه

لينظر إلى جسدها الأنثوي بشهوة، يبتسم ويضع يده على مكان وجود الشيك داخل جيبه.

تحركت الطائرة وهي تحمل على متنها قطعة أخرى تسلب من أرضها إلى أرض أخرى لا تنتمي لها وإلى يد أخرى لا يحق لها لمسها.

***

داخل مكتب النقيب (هشام) الذي يجلس خلف مكتبة وعلى الطرف الآخر يجلس المحامي (رشاد) بثقة وهدوء ومن أمامه يجلس (يوسف) ويبدو عليه التوتر والغضب، دقائق وطرق الباب ودخل من خلفه الأمين (مجدي) وهو يجتر من خلفه شاب نحيف الجسد طويل القامة، يحيط السواد بعينيه، فور دخولة نظر إلى (رشاد) وظهر عليه القلق، فك الأمين قيوده وخرج بعد أن أدى التحية العسكرية، نظر (هشام) إلى (يوسف) الذي بدا عليه الانفعال وقال:

- أصلان، إحنا اتفقنا.

أومأ (يوسف) برأسه وبدأ (هشام) تحقيقه موجها حديثة إلى الشاب قائلًا:

- اسم وسنك ومهنتك.

نظر الشاب إلى (رشاد) فقال له:

- اتكلم متقلقش.

ابتلع الشاب ريقة وقال بصوتٍ منخفض:

- اسمى أحمد عبد العزيز مرزوق، ومعروف ب(زيزو)، سني 27 سنة وبشتغل على توك توك سواق سعادتك.

وقف (هشام) واتجه إلى (زيزو) وأخرج صورة من جيبة تعود إلى (مريم) وقال وهو يضعها أمام عينيه:

- تعرف الطفلة دي؟

ارتبك (زيزو) ونظر إلى (رشاد) من جديد الذي قال مسرعًا:

- يا ابني رد على حضرة الظابط، أنت كل شوية هتبصلي؟ قلتلك متقلقش، أنت مش متهم بحاجة.

استجمع (زيزو) شجاعته وقال:

- لا معرفهاش يا باشا.

ظهرت معالم الغضب على وجه (يوسف) سرعان ما تداركها النقيب(هشام) وقال:

- طيب تعالى بص كده على الفيديو ده وقولي رأيك.

ضغط على ريموت التلفاز الذي بدأ يعرض من منظور كاميرا بزاوية مرتفعة اِقتراب التوك توك الذي كان يقوده (زيزو) من محل الفضيات ثمَّ هبطت منه سيدة منقبة أمسكت ب(مريم) ووضعت يدها على فمها بقطعة قماش ثمَّ عادت لتركب التوك توك وينطلق به (زيزو) الذي ظهرت صورته واضحة في اِنعكاس مرآة التوك توك.

تعرق جبين (زيزو) وقبل أن ينطق قال (رشاد):

- دة سواق توك توك يا (هشام) باشا يعنى ملوش دعوة بالخطف، واحد سواق في واحدة وقفته وقالتله وصلنى للمكان الفلاني وصلها وخلص الموضوع هي بقى كانت معاها طفلة مخطوفة معاها مخدرات سارقة شقة مش مشكلته هو يا فندم.

اندفع (يوسف) بصوتٍ مرتفع قائلًا:

- وهو في حد في الدنيا هيشوف واحدة بتخطف طفلة ويكمل توصيلها عادي كده؟

أشار (هشام) إلى (يوسف) أن يصمت وقال موجهًا كلامه إلى (زيزو):

- إيه رأيك في الفيديو ده؟ فاكر اللي حصل ده؟ أو فاكر مين الست دي أو وصلتها فين؟

مسح (زيزو) على رأسه وقال:

- الصراحة مش فاكر يا باشا، أنا كنت مطبق اليوم ده ومكنتش داري بالدنيا، ووالله يا باشا مخدتش بالي من كل اللي حصل ده، أنا عيل غلبان عايش اليوم بيومه ومليش في الشمال يا باشا.

اندفع (رشاد) قائلًا:

- أظن كده يا هشام بيه مفيش كلام تاني يتقال، زيزو واضح إنه ميعرفش حاجة عن اللي حصل وإن حظة السيئ إنه كان موجود وقت الحادثة.

مسح النقيب (هشام) على وجه ونظر إلى (يوسف) نظرة سريعة وقال مناديًا:

- يا أمين مجدي.

دخل مسرعًا الأمين وأدى التحية منتظرًا التعليمات من (هشام) الذي قال:

- خد الواد ده رجعة الحجز لحد ما نعرضه على النيابة.

وضع الأمين (مجدي) القيود بيد (زيزو) الذي اِرتسمت على وجه الابتسامة وهو يغادر المكتب منتصرًا.

أحس (يوسف) أن الأمور تخرج عن نصابها الصحيح وشعر أن هناك مكيدة ما تحاك وسيضيع حق اِبنته ويضيع معها آخر أمل في العثور عليها فقال:

- يعني إيه؟ الواد ده ممكن يخرج من القضية دي براءة؟ ده متصور وهو بيخطف مريم ومعاه واحدة تانية إزاي يخرج براءة؟

انفعل (رشاد) وقال:

- زيزو بريء يا أستاذ يوسف، مش مشكلته إنك معرفتش تحافظ على بنتك، بطلوا تعلقوا أخطائكم على شماعات الناس الغلابة وتتهموهم بالباطل.

كادت أن تحدث مشاجرة بين الاثنين لولا تدخل (هشام) ليحول دون حدوث ذلك وقال:

- اهدى يا أصلان، خلاص يا أستاذ رشاد حضرتك تقدر تروح تستنى الموكل بتاعك في النيابة وتحضر التحقيق معاه، بس قبل ما تمشي أنا عايز أسألك سؤال.

وقف (رشاد) وعدل من هيأته وقال:

- اتفضل.

قال النقيب (هشام):

- إزاي أنت المحامي بتاعه؟ أنت محامي كبير ومعروف والواد ده سواق توك توك، هيدفع أتعابك إزاي؟ ولا مش هو اللي هيدفعلك؟

ابتسم (رشاد) بدهاء وقال:

- كل حاجة ليها تمنها يا هشام باشا، ومش مهم مين اللي هيدفع المهم إن حد لازم يدفع ولا إيه.

قال تلك الجملة ثمَّ ترك الاثنين في حالة غضب عارمة منتظرين نتيجة التحقيقات التي وبشكل كبير ستؤل إلى نفس النتيجة، براءة (زيزو) والوصول إلى طريق مسدود.

قال (يوسف) بحزن:

- أنت سمعت قال إيه؟ معناه إيه الكلام ده؟ يعني أنا واللي زي لازم ندفع تمن غلطات معملنهاش، لو أنت مش هتعرف تجيب حق مريم وهتسكت أنا مش هسكت وهجيب حقها بنفسي.

انفعل (هشام) وقال:

- دة مش حل، مفيش حاجة اسمها تتصرف أنت، البلد فيها قانون وهنرجعلك بنتك بالقانون.

سقطت دمعة سهوًا من عين (يوسف) الذي قال بصوت منكسر:

- ده لو كانت عايشة، أنا اللي هجيب بنتي سواء كانت عايشة أو ميتة وأنا اللي هجيب حقها ومش هدفع أنا ولا هيا ثمَّن الظلم اللي عايشين فيه ده.

ارتفع صوت (هشام) قائلًا:

- أنا منصحكش تعمل ده يا أصلان، هتدخل نفسك في مشاكل وهتلبس مصيبة.

ارتفع صوت (يوسف) قائلًا:

- وهو اللي أنا فيه ده مش مصيبة؟ أنا مش عارف أعيش من يوم ما مريم بعدت عني، من يوم ما خدوها مني.

اقترب النقيب (هشام) من (يوسف) وربت على كتفه وقال:

- والله أنا ما هسيب حقها وإن شاء الله خير، خليك واثق فيا وواثق في ربنا.

***

(رشاد) يقود سيارته حديثة الطراز في طريقة إلى مكتبه حتَّى حلول وقت عرض (زيزو) على النيابة، يخرج هاتفه الجوال ويجري اتصال، ينتظر الإجابة ثمَّ يقول:

- أكمل باشا، أنا لسه مخلص التحقيق، الواد هيخرج النهارده من النيابة، بس عايز 100 ألف عشان يسكت.

يستمع بحرص إلى ما يقال ثمَّ يجيب:

- يا باشا هو أنا هاخد الفلوس دي أحطها في جيبي، ده واد طماع نسكته أحسن ما يطرطش كلام هنا ولا هنا، المبلغ ده هينسيه اسمه مش اللي حصل.

يستمع مرة أخرى إلى ما يقال ثمَّ يجيب:

- لا للأسف الظابط هشام ملوش سكة خالص، صاحب مبادئ وساعدته، عبيط بقى نقول إيه، الحل الوحيد إننا نصفيه ودي شغله الميت، أنا كده عملت اللي عليا.

يستمع مرة أخرى جيدًا فيبتسم ويقول:

- أوامرك يا أكمل باشا، أوامر سعادتك.

يغلق الهاتف وينظر إلى اِنعكاس صورته في المرآة، يشعر بالتقزز من نفسه ثمَّ سرعان ما يبتسم ويكمل طريقة وهو يستمع إلى موسيقى هادئة عبر (كاسيت) السيارة ويحرك يده كامايسترو أمام الجماهير العريضة.

***

صوت مكتوم صادر من جسد مستباح تتألم صاحبته بشدة، قادم من حجرة مفتوح بابها على مصراعيه، ثياب ملقاة أرضًا تخص رجل وامرأة ويبدو أنهم تجردوا منها قبل صعودهم إلى فوق منبر الرجس، الفراش يهتز بقوة متزامنا مع نفس ذلك الصوت القادم من تلك الفتاة مقيدة اليدين والقدمين في أحد أجزاء الفراش من الاتجاهات الأربعة، مكممة الفاه، دموعها تنساب على وجهها مختلطًا بكحلٍ عينها، جسدها به الكثير من العلامات موزعة على سائر أنحاء جسدها، تنظر بخوف في اتجاه شاب متناسق الجسد، يحمل بإحدى يديه عصا وبالأخرى كاميرا يصور بها جسد الفتاة العارى وما يفعله بها من أساليب تعذيب ساديه، ثبت الكاميرا في أحد الأماكن واقترب من الفتاة وأخذ يضربها بتلك العصاة في أماكن متفرقة من جسدها، أصدرت الكثير من الصرخات المكتومة بينما ظهرت معالم الرضا على وجهه وهويكمل ذلك.

بعد عدة ساعات من التعذيب المتواصل، فك قيودها وألقى إليها حفنة من

المال واتجه كي يرتدي ملابسه، أمسك بالكاميرا وتحرك في اتجاه باب الشقة، هبط عبر المصعد إلى جراج العقار، اقترب منه حارس العقار مبتسمًا وهويقول:

- واضح إن الليلة كانت حلوة يا أستاذ عدنان.

ابتسم (عدنان) وهو يعطي بعض النقود إلى الحارس وقال:

- حلوة أوي، لما الطاهرة تنزل أبقى أطلبلها تاكسي ولو حد سأل كانت عند مين أبقى قولهم كانت عند أستاذ جمال اللي في التاني هما عارفين إنه بتاع ستات وهو بيحب يتمنظر بده، لكن أنا راجل مذيع، سمعتي لازم تكون نضيفة لا إيه؟

امسك الحارس بالنقود بلهفة وقال:

- نضيفة طبعًا يا عدنان بيه، مع ألف سلامة.

***

داخل مكتب وكيل النيابة (خالد منير) يجلس خلف مكتبه وينظر إلى (بِشر) الذي كان يرتشف من فنجان قهوة كان قد أمر به (خالد) من أجل جعلة مرتاح كي يتحدث إليه ويحاول إقناعه بالتحدث عن مالك المخدرات الحقيقي، هو يعلم في قرارة نفسه وبحكم خبرته أن (بِشر) ضحية جديدة يلقى بها داخل السجون أو يلف حول عنقها حبل المشنقة، هو لا يريده ولا يريد من يرأسه بل يريد من يدير تلك المنظومة و(بشر) هو أول الغيث.

أنهى (بشر) فنجانه ونظر إلى (خالد) بترقب وقال:

- برده حضرتك عيزني أتكلم صح؟

ابتسم (خالد) ووقف من مكانه وتوجه كي يجلس أمامه على الطرف الآخر من المكتب وقال:

- أنا عاوزك تتكلم عشان أساعدك وأوعدك إنك لو اتكلمت هعتبرك شاهد

مالك وهقنع الكل إنك كنت شغال مع الشرطة وخدمت البلد ووصلتنا للراس الكبيرة، أنا يا بشر وكيل نيابة يعني نائب عن كل الشعب هنا وبمثلهم، وظيفتي مش بس إني أحولك للقضاء وأريح نفسي لا أنا وظيفتي إني أساعد الناس في إنها تكون أحسن وأساعد الناس البريئة اللي زيك إنهم يبتدوا حياة جديدة، لازم تساعدني عشان أقدر أساعدك.

نظر (بشر) إلى الأرض ثمَّ رفع رأسه وقال:

- بس أنا مقدرش أتكلم، أنا مقدرش أقول أنا شغال لحساب مين، مش خوف منه خوف عليه.

ظهرت معالم التعجب على وجه (خالد) وقال:

- مش فاهم؟!! يعني إيه خوف عليه؟

حاول (بشر) التهرب من السؤال وقال:

- مش مهم، المهم أنا مقدرش أتكلم، أنا معترف بكل حاجة، وأنت مش هتقدر تساعدني، صدقني، أنا منتهى.

حاول (خالد) فهم ما يدور بعقل (بشر) وأخذ يقلب تلك الجملة التي قالها داخل عقله ولم يتوصل لشيء فقال:

- أنت بتدافع عن الشخص اللي كان السبب في وجودك هنا؟ طب إزاي؟ ولو هو مهم عندك أوي كدا، أنت ليه مش مهم عنده ومحاولش إنه يخرجك ويبقى هو بدالك ؟ خليك ذكي وافهم بقى إنك الضحية واخوك عايش بره ملك وأنت اللي شيلت الطين فوق راسك، فهمني دماغك دي بتفكر إزاي؟

دمعت عين (بشر) وقال:

- مش دماغي صاحبة القرار هنا، في ناس متقدرش تسببلهم أذى حتَّى لو هما

أذوك حتَّى لو قتلوك أو اِتسببوا في ده، في ناس اِتخلقت عشان تكون قابيل وناس اتخلقت عشان تكون هابيل وناس اتخلقت عشان تحكي قصتهم.

أنهى كلماته ووقف واضعًا يده إلى الأمام طالبًا أن توضع القيود عليها تاركًا كل علامات الغضب والتعجب بعبس بوجه (خالد) الذي ضاقت به كل السبل، انتهى دوره في قصة قابيل آخر.

***

نظر وكيل النيابة إلى وجه (زيزو) بعد أن أنهى أقواله ثمَّ نظر إلى المحامي (رشاد) الذي كان وجه مألوف للجميع ثمَّ قال بصوتٍ مسموع:

- اكتب يا ابني، وبعد التحقيق وسماع أقوال المتهم / أحمد عبد العزيز مرزوق الشهير ب(زيزو) في الاتهام الموجه إليه في خطف الطفلة (مريم يوسف أصلان) قررنا نحن وكيل النائب العام / سليمان ناصر إبراهيم إخلاء سبيل المتهم من سراى النيابة بضمان محل إقامته بعد أن تبين إلينا من خلال التحقيقات براءة من التهم المنسوبة إليه.

ثمَّ نظر مجددًا إلى (زيزو) وقال:

- تعالى امضي هنا يا ابني.

ابتسم (زيزو) ونظر إلى (رشاد) الذي كان يحمل ملامح من ثلج لا تتأثر ولا تتغير ثمَّ توجه إلى المكتب وأمسك بالقلم ووقع أسفل أوراق التحقيقات.

أمر وكيل النيابة بأخلاء سبيله وخرجا سويًّا أمام ناظر (يوسف) الذي كان يقف بالقرب من المكتب وكان موتقع أن يحدث ذلك، عزم على أن يكمل المسيرة وحيدًا دون انتظار أن يساعده أحد، تحرك خلفهم بترٍو وهدوء حتَّى غادروا جميعًا ذلك المبنى المقتظ بقضايا ألقت أمام اِمرأة عجوز عمياء تحمل ميزان مختل.

(8)

"الحق في بعض الأوقات يؤخذ انتزاعًا لا طلبًا، وتعلم إن سلبت شيئًا فعليك أن تستعيده بنفسك وإن قطعوا لك ألف وعد، فالوعود تذوب كالملح بالماء في نهاية المطاف والكثير منها يقطع عبثًا، ما أخذ بالقوة يسترد بما هو أقوى منه ومن سدد لك لكمة انتزع عنقه من فوق كتفيه حتَّى تنتهي منه وإلى الأبد".

بالقرب من أحد المناطق الشعبية الفقيرة التي تطل على منظر عبثي من المباني المترامية فوق بعضها البعض صعودًا على جبل قارب على الانقضاض ومحو الجميع ومساواتهم بالأرض وبالقرب من الطريق الوحيد المؤدي إلى تلك المنطقة توقف (رشاد) بسيارته، نزع نظارته الشمسية ونظر إلى ساعة يده في تأفف، مرت عدة دقائق واقتربت دراجة نارية، توقف صاحبها بالقرب من السيارة، نزع الغطاء الحامي للرأس فظهرت ملامحة جلية (زيزو)، ابتسم إلى (رشاد) الذي أعطى له كيس أسود أمسك به بلهفة ونظر إلى ما بداخله فاتسعت ابتسامته أكثر، أشار بيده إلى (رشاد) وركب فوق دراجته النارية وتحرك مسرعًا.

نظر (رشاد) إلى شكل تلك البيوت بتقزز ثمَّ مرر عينيه بمكر وخبث كبيران كي يتأكد أنه لم يراه أحد يفعل ذلك، رفع زجاج الشباك بجاورة ثمَّ ارتدى نظارته الشمسية، أمسك بهاتفه الجوال وبحث بداخله ثمَّ انطلق بسيارته بعيدًا عن ذلك المكان العشوائي الفقير والذي كان ينتمي لمكان مشابه له في الماضي.

فور ابتعاد (رشاد) بسيارته ضغط (أصلان) زر توقف التسجيل، فقد كان يسجل كل ما رآه وكان يتبع (زيزو) فور خروجه من مبنى النيابة والآن لدية دليل على تواطئ الجميع.

***

في أحد الدول الأوروبية وبالأخص إيطاليا هناك عدد كبير من الحراسة الخاصة والمسلحة تحيط بقصر جميل المظهر، يقف أمامه الكثير من السيارات حديثة الطراز تقترب أحداهم وتهبط منها (هند) بفستان أزرق ضيق وتجتر خلفها حقيبة سفر متوسطة الحجم، بالقرب من باب القصر ظهر شهاب ذو ملامح أوروبية وشعر ذهبي اللون، ملامحه الجادة تشير إلى أنه خارج عن القانون وذلك القيراط الذي يخترق حاجبه الأيمن وحكة أنفه المستمرة يشيران إلى أنه مدمن للمخدرات، يمسك بيدها ثمَّ يقبلها ويشير لها أن تتبعه، يدخل بخطوات واثقة إلى ساحة القصر ذات الطلاء الأبيض وهي من خلفه، يتحرك باتجاه رجل ما يجلس على كرسي مُذَّهبًا ضخم الشكل ثمَّ يشير إليها أن تتجه نحوه، يقبل يدها من جديد ويغادر القصر، تتحرك (هند) خطوات للأمام فيقف ذلك الرجل من فوق ذلك الكرسي الذهبي ويقول:

- هند، الجميلة هند، بفرح جدًا لما بشوفك، يا ترى جيبتي هديتي معاكِ.

قال تلك الكلمات ثمَّ اقترب منها وقبلها بقوة وهو يعتصر جسدها بجرأة لم يقابلها سوى قبول وضحكة مرتفعة من هند التي تركتة يفعل ما يريد حتَّى انتهى ثمَّ قالت:

- فرانشيسكو أنا جاهزة بهديتي، أنت جاهز؟

تحركت باتجاه الحقيبة وفتحتها ثمَّ أخرجت تمثال فرعوني صغير، هرول إليه (فرانشيسكو) وأمسكه بانبهار وأخذ يتفقده بشغف ثمَّ أشار إلى أحد رجالة فتحرك وبيدة حقيبة أعطاها إلى (هند) التي سرعان ما أمسكت بها وأخذت تنظر إلى النقود بعين لامعة.

بعد عدة دقائق أشار (فرانشيسكو) إلى أحد رجالة وأعطى له التمثال الفرعوني

وأمسك بيد (هند) وهو ينظر إلى مفاتنها البارزة من خلف ذلك الفستان الضيق وقال:

- هو إزاي واحدة زيك كده وبجمالك ده لسة شغاله لحساب حد تاني، تشتغلي معايا يا هند؟

ابتسمت هند وقالت:

- أتمنى ده.

ضمها (فرانشيسكو) إلى صدرة وقال:

- أتمنى تكوني كويسة في الشغل زي في السرير.

ثمَّ اتجه بها إلى غرفة داخل قصرة كبير الحجم وأغلق خلفة الباب على عجالة وهو يخلع ملابسه ويقبلها بشهوة عارمة.

***

حقيبة سوداء كبيرة الحجم تحوي الكثير من الأكياس الممتلئة بالمسحوق الأبيض موضوعة أعلى منضدة تتوسط مكتب (أكمل) الذي يقف بالقرب منها ويتحدث عبر الهاتف، يمد يده ويمسك بكيس ويلقى به إلى (وجيه) وهويقول:

- العينه وصلت قدامي أهي، هنجرب ونشوف ولو الدنيا مشيت كويس هنطلب تاني ونسبتنا هتعلي زي ما اتفقنا وعلى فكرة ولا بقى (بهاء فوزي) ولا (مدحت جزهر) بذات نفسه هيعرف يصرفها في وقت قصير زينا، أنا بحب أثق في الناس اللي بشتغل معاها.

يستمع إلى ما يقال ثمَّ ينظر إلى (وجيه غالي) الذي أمسك بالكيس صنع فتحه وأخرج منها عينه ضئيلة ذاقها بطريقة احترافية وأشار أنها عالية الجودة، انتظر حتَّى انتهى محدثة من الكلام ثمَّ قال:

- يا صديقي العزيز، البيزنس مفيهوش مجاملة، وبعدين إحنا قبل ما نشتغل في المخدرات بقالنا سنين في الأعضاء، وبالمناسبة إحنا جهزنا الطلبية، الفلوس تتحول بكره الصبح الكونتر يوصل المينا عندك باليل.

يستمع جيدًا إلى ما يقال ثمَّ يبتسم وينهي المكالمة ويجلس خلف مكتبة ويبدو عليه الإرهاق الشديد، يقترب (وجيه) ويجلس على الطرف الآخر من المكتب ويقول:

- ما تسيبنا بقى من الأعضاء ونتوسع في المخدرات، الريسك عالي أوي واليومين دول العيون مفتحة وحقوق الإنسان مسخنة الدنيا.

يحرك (أكمل) رأسه يمينًا ويسارًا غير موافقًا على رأي (وجيه) وقال:

- إحنا هنا رقم واحد في تجارتنا، ممكن نتوسع ونتاجر في المخدرات ونتعب لحد ما نوصل لرقم واحد فيها بس مينفعش نخسر مركزنا، وبعدين إحنا لوبطلنا هنتهاجم والناس دي الشغل معاها عقد مدى الحياة، إحنا لما بدأنا كنا عارفين حجم المجازفة ومع كل ما كانت مجازفتك كبيرة كل ما كانت فلوسك وسلطتك أكبر، فاهمني يا صاحبي؟ ومتنساش الكبير بتاعنا كلمته ساريه على الكل.

ابتسم (وجيه) وقال:

- فاهمك، بس مش عارف أكون زيك، أنت شيطان وأنا جنبك ملاك.

ارتفعت ضحكة (أكمل) وقال:

- كلنا ملايكة يا صديقي.

***

داخل أحد الأوكار الإجرامية والتي ينبعث منها كل روائح الفساد والشر يجلس (شبل) بجانب أحد معارفه القدامى والذي اِعتاد العمل معه في خطف الأطفال وبيعهم لسنوات طوال وها قد أتى اليوم الذي يبحث فيه عن اِبنه (آدم) الهارب من الموت، أخرج مبلغ مالي من كيس أسود ووضعه في يد صديقه القديم وأخرج صورة تخص ابنه وقال:

- ده آدم ابني، عايز أعرف مكانه، أنا جيتلك عشان أنت الوحيد اللي مش ممكن تبيعني للميت، أنا متاكد من ده، أنت قلتلي إني ليا عندك جميل في رقبتك وفي يوم هتوفيه، ده اليوم يا صاحبي.

وضع ذلك الشاب المال داخل الكيس الأسود وأمسك بصورة (آدم) ثمَّ نظر إلى وجه (شبل) الخائف وقال:

- خلي فلوسك معاك يا شبل، أنت زمان نجدتني من الموت ومن شر الميت، هوصل لابنك لو تحت سابع أرض وهبلغك، متقلقش.

احتضن (شبل) الشاب ثمَّ تركه وغادر المكان وهو أَمِل أن يعثر على اِبنه المفقود، شعر أن هناك مكان متاح للخير داخل القلوب السوداء لكنه يعلم أن الشيطان لا يفعل الخير أبدًا ولا حتَّى اتباعه.

بعد أن اِبتعد (شبل) عن المكان، أخرج الشاب هاتفه الجوال وبحث عن رقم (حمزة الميت) ثمَّ كتب رسالة نصية كان محتواها (شبل لسة ليه عيل عايش وبيدور عليه، أنا عارف يا كبير إن قلبك ميت بس بطمنك هو مش فاضي يدور عليك، هجيب ابنه وأسلمهولك وليا الأمان "أرسل الرسالة وأخذ نفسًا عميقًا من (الشيشة) المستقرة أمامه ثمَّ أخرج الدخان إلى أعلى وظل ناظرًا إليه حتَّى اختفى أثره".

***

قدم تهرول باتجاه أحد أقسام الشرطة، تزداد سرعتها عند المدخل، يتجاهل صاحبها نداء أمناء الشرطة والعساكر، يتحرك صعودًا إلى الدور العلوى ثمَّ يقترب من مكتب المأمور ويطرقه، لا ينتظر الإجابة ويدخل مسرعًا، يلفظ أنفاسه بصعوبة بعد أن اِستقر أمام مكتب يجلس خلفه (هشام) وعلى وجه الغضب والضيق وقف وتحرك باتجاه المقتحم وقال بصوت يشوبه العتاب:

- هو أنا يا أصلان مفيش ورايا غير قضيتك أنت بس؟ أنا مش بلغتك إني لما أوصل لحاجة في موضوع مريم هبلغك وقلتلك خليك بعيد وسيبنا نشوف شغلنا.

دخل العديد من العساكر وأمناء الشرطة الغاضبين إلى المكتب فأشار لهم (هشام) أن يخرجوا ففعلوا.

أخرج (يوسف) هاتفه الجوال من جيبه وأخذ يبحث بداخله عن شيء ثمَّ وجه شاشته إلى (هشام) وهويقول:

- بص الفيديوده.

امسك (هشام) الهاتف الجوال وتابع الفيديو الذي استمر لعدة دقائق حتَّى النهاية، أعاد تشغيله مرة أخرى ثمَّ أعاد الهاتف إلى يد (يوسف) وقال:

- ده مش دليل يا أصلان، أنت ليه مش قادر تفهم؟

انفعل (يوسف) وقال:

- إزاي مش دليل، بيسلمه فلوس وبيتلفت حواليه زي الحرامية وتقولي مش دليل، أنت معاهم؟؟

انفعل (هشام) كبركان انفجر للتو وقال:

- متنساش نفسك يا يوسف، أنت بتكلم ظابط شرطة، ظابط عرض نفسه للخطر ومات صحابة قدام عنيه عشان يوصل حتَّى لطرف خيط يرجع بيه بنتك وعيال الناس التانية، اِعقل الكلام اللي بتقوله.

دمعت عين (يوسف) وشعر أن الحوائط الأربعة يطبقون عليه وقال بصوتٍ مخنوق:

- أنا مش فاهم ليه بيحصل كل ده، أنا لازم أرجع مريم، بيكوا أو من غيركم، أنا مليش دعوة كام واحد مات ولا كام واحد هيموت، أنا ميهمنيش أموت أنا بس مريم ترجع، أنا آسف يا حضرة الظابط، آسف إني عرضتك للخطر وآسف إن أصحابك ماتوا قدام عنيك، مريم لازم ترجع وتعيش، أنا مش هنام إلَّا لما أرجعها.

ألقى بنظره في كل مكان داخل المكتب وقال محاولًا الابتسام:

- أنا سببتلك إزعاج في موضوع هايف يخص واحد فقير ملوش لازمة، واحد عادي أو أقل من العادي، إنما لو كان حد من البشوات أو يعرف حتَّى البشوات دول كانت الدنيا قامت ومقعدتش إلا لما رجعتوا حقه، الدنيا دى غريبة أوي، في ناس دمها رخيص أوي وناس تانية ضلها يساوي ملايين، خليكوا أنتوا للناس دي وإحنا لينا ربنا، أشوفك بخير.

التفت وسقطت منه دمعة سرعان ما مسحها بكف يده، لم يكترث للنداء المتكرر عليه، صمت أذناه وعقد لسانه، ضاق صدره واتسعت فجوة أحزانه لتبتلع قلبه، أظلمت الدنيا من حوله كشاشة تلفاز تحترق، اتبع خطوات قدماه على غير هدى ولا وعي.

***

قبلات حارة تطبع على جسد (رشاد) من شفتي غليظتين تنتميان لامرأة عارية، تحتضنه بقسوة، تمرر أظافرها على صدره بقوة وشهوة عارمة تاركة خدوش تؤلمه، يمسك بشعرها فجأة لتخفف الوطأ عليه وتكف عن أذية جسده، يبتسم ويجذبها نحوة، يبادلها القبلات لعدة دقائق، يصدر هاتفه الجوال رنين فيتوقفان

عمَّا يفعلونه، ينظر (رشاد) إلى شاشة هاتفه الجوال لينتفض وينظر إليها وهو يبتلع ريقه ويقول:

- مدحت بيه، جوزك.

تشير له أن يترك الهاتف ويعود إلى الفراش فيرفض ويطلب منها أن تصمت ويجيب قائلًا:

- مدحت باشا، إزي معاليك؟

يستمع بحرص إلى ما يقال بينما تقترب منه هي وتقبل رقبته، يدفعها برفق لتعود من جديد، يجيب قائلًا:

- متقلقش يا مدحت باشا، كل حاجة ماشية زي ما قلتلي، أنا على متابعة مع بهاء باشا في كل خطوة، محدش بينخرب ورانا.

أصدر صوت ألم مكتوم بعد أن ضغطت على كتفه بأسنانها تاركة أثر وخدش، دفعها بعيدًا ووقف وأكمل حديثه:

- اطمن يا باشا، كل حاجة تمام زي ما أنت مخطط بالظبط.

أنهى المكالمة واتجه إليها مسرعًا، ألقاها أعلى الفراش وانقض عليها ليصبح فوقها مباشرة، قيد يدها وقال:

- أنتِ إيه؟ متخافيش يكشفنا؟

تبتسم وتنظر إلى عينه مباشرة وتقول:

- نجلاء مبتخفش يا متر، نجلاء بتعمل اللي هي عايزاة وبس.

أنهت كلماتها التي تركت بعضًا من الخوف داخل قلب (رشاد) ثمَّ قبلته وجعلت الأمور أكثر اِشتعالًا بطريقتها المتصابية رغم عمرها الذي تخطى العقد الرابع.

(٩)

"الشيطان لا يعلن عن وجوده أبدًا إلَّا إن كنت أحد أتباعه، يطرق جميع أبوابك ويتسلل من كل الشرف التي تؤدي إلى صدرك، يخيفك أوقات ويطمئنك أوقات، يشعل بعقلك الحرائق حتَّى تستغيث فيفصح عن وجوده كنبي أتى إليك برسالة مقدسة هادمًا لكل الأصنام التي تحيط بك فتتبعه مشدوها، أو هكذا يخيل لك".

ضوء ضعيف يحاول جاهدًا إنارة شارع ضيق ملتوي كثعبان طويل للغاية، صمت مقلق يتخلله صوت أقدام تترنح في اتجاهها إلى بيت عتيق، صفير مزعج قادم من فم مخمور يشق الليل قارس البرودة، كلما أطلق صفيرًا صحبه بخار كثيف جعله يضحك من دون سبب، عقله المخدر جعله لا يشعر بمن يتتبعه طوال طريق عودته، نظر (زيزو) إلى الخلف بعد أن توقف على إحدى درجات السلالم، وضع يده على جيبه كأنه يطمئن على شيء ما، وضع يده داخل جيبه وأخرج رزمة من المال نظر إليهم ثمَّ قبلهم وأعادهم إلى جيبه من جديد، ترنح يمينًا ويسارًا حتَّى وصل إلى باب شقته في الدور الثاني من العقار، أخرج مفتاحه وبصعوبة بالغة تمكن من فتح الباب، دلف إلى الشقة وألقى بمفاتيحه على كرسى قديم قريب من الباب، اِستدار بصعوبة ووضع يده على الباب في محاولة لإغلاقه، دفع أحدهم الباب من الخارج فاصطدم برأسه ووقع أرضًا.

حاول الاعتدال فتلقى لكمه أَدمت وجه وأعادت إليه وعيه، حاول الفرار فمسك به أحدهم وأبقاه أرضًا وبدأ يسدد له ركلات جعلته يصرخ من الألم، تلقى لكمة جديدة في أنفه جعلته يفقد الرؤية للحظات من شدة الألم، أمسك بأنفه فتيقن من تحطمها، نظر بصعوبة إلى من يسدد له اللكمات من دون رحمة فازداد خوفًا، وضع يده أمام وجه في محاولة لمنع تلقي المزيد من اللكمات وهويقول:

- أنا مليش دعوة والله، أنا عملت اللي قالولي عليه بس.

ظهرت معالم الغضب والكره جلية على ملامح (يوسف) الذي توقف لحظات

عن ضرب (زيزو) ليسترد أنفاسه ثمَّ أخرج هاتفًا ثبته في مكان ما وضبطه على التسجيل وتحرك من جديد ليمسك بحبلٍ أخرجه من داخل سترته ولفه حول عنق (زيزو) بقوة.

وجهه أوشك أن ينفجر منه الدماء وأنفاسه أصبحت تدخل إلى رئتيه بصعوبة بالغة، لسانه حاول النطق لكنه فشل وما زال (أصلان) يزيد من قوة الضغط على رقبة ثمَّ تركه ليلفظ أنفاسه، أصدر (زيزو) صوت سعال مرتفع للغاية وحاول أن يشير بيد مرتعشة إلى (يوسف) الذي ترك شيطانه يقود تصرفاته بكل ود وترحيب، أكمل سعال ثمَّ قال بصوت مختنق:

- استنى، أنا عارف مين خطف بنتك، بس سيبني أعيش، سيبني أعيش، أنا هقولك على كل حاجة.

ترك (يوسف) الحبل من يده وأخرج سكين أمسكه بأحكام واقترب من (زيزو) وعيناه تملؤهما الدموع، قلبه يوشك على التوقف من الخوف، غضبه يقوده إلى الهاوية من دون تفكير، الشيطان يجلس فوق كتفيه يبارك ما هو مقبل عليه، أمسك بتلابيبه وقال بصوت مرتعش:

- مريم؟، لسه عايشة؟

تردد (زيزو) في الإجابة فطعنه في فخذه بغل ليصرخ وهو ينظر إلى الدماء السائلة من قدمه غير مصدق، كرر (أصلان) نفس السؤال:

- هقتلك، جاوب، بنتي لسه عايشة؟

تردد مره أخرى وقبل أن يطعنه في صدره قال (زيزو) وهو يبكي ويسيل لعابه من كثرة الألم:

- معرفش، والله العظيم ما أعرف، أنا كل اللي أعرفه مين اللي خطفها وأعرف عايشه فين، أكتر من كده معرفش.

تركه (يوسف) فسقط أرضًا ينتحب وهو ممسك بقدمه في محاولة لوقف نزيفها، جال بعينه بحثًا عن كرسي يجلس عليه فوجد واحدًا متهالكًا، سحبه إلى منتصف الصالة ثمَّ جلس فوقه وأخرج سيجارة من جيبه أشعلها وبدأ في تدخينها كي يهدئ من روعة ثمَّ قال وهو ينفس الدخان في وجه (زيزو):

- اتكلم، أنا سامعك.

اعتدل (زيزو) بصعوبة ثمَّ زحف إلى الخلف في رعب وأسند ظهره على حائط قريب وقال:

- اللي خطفتها واحدة اسمها وفاء، شغلتها تخطف العيال وتسلمهم لواحد اسمه شبل، أنا مجرد سواق توك توك بأبقى معاها وقت ما تخطف العيل وأجرى بيها بسرعة أوصلها لحد بيتها واخد مبلغ، هي بتكلمني كل ما يكون فى شغل.

تذكر (يوسف) ذلك اليوم فشعر بنيران تشتعل من جديد داخل صدره، أحكم قبضته على السكين ثمَّ قال:

- أوصل للي اسمه شبل ده إزاي؟

كان الألم يجتاح كل أوصاله فرد بصعوبة وقال:

- معرفش فين مكانه والله، أنا عمري ما شوفته ولا كلمته حتَّى، أنا سمعتها كتير بتكلمه في التليفون لكن عمري ما قابلته.

اندفع (يوسف) بقوة في اتجاه (زيزو) أمسكه بأحكام ووضع نصل السكين على رقبته التي أدمت بعد أن جرحت جرح سطحي لكنه مؤلم جعل الخوف يسكن قلبه فقال:

- والله ما أعرف حاجة أكتر من اللي قلتها، أنا أعرف فين مكان بيت وفاء وأنت روح واتصرف معاها، والله ما أعرف أكتر من اللي قلته يا باشا.

نزع (يوسف) السكين من أمام رقبته وقال وهو يعطي له ورقة وقلم.

- خد اكتب هنا العنوان بالتفصيل، ولو فكرت تلعب معايا أنا عارف عنك كل حاجة وهعرف إزاي أوصلك تاني، لو جبت سيرة اللي حصل حتَّى لو صدفه هقتلك.

أمسك (زيزو) الورقة بسرعة وبدأ في كتابة عنوان (وفاء) وهو يلهث وينعم بأنفاسه داخل رئتيه التي تعلو وتنخفض باستمرار، انتهى من كتابة العنوان ثمَّ قال:

- العنوان أهو بس أبوس إيدك سيبني أعيش، أنا عيل غلبان مش زيهم دول شيطاين وعشان تاخد حقك منهم لازم تكون رجلك شيلاك وتكون قد الدم.

أمسك (يوسف) الورقة نظر إليها ثمَّ وضعها داخل سترته، جذب (زيزو) من ملابسه فأوقفه عنوة، وضع يده داخل جيبه فأخرج هاتفه الجوال ألقاه أرضًا، بحث في الآخر فأخرج رزمة النقود، أمسكها ووضعها داخل سترته وقال:

- دي فلوس بنتي مش كده؟

ثمَّ دفعه بقوة فأوقعه أرضًا، أمسك بالحبل والسكين والهاتف ثمَّ اتجه إلى باب الشقة وغادر بهدوء.

وضع (زيزو) يده على رقبته مكان الجرح ثمَّ هرول مسرعًا إلى هاتفه الجوال، أمسك به وبحث عن رقم (رشاد) وجده، أجرى اتصال وانتظر الإجابة ثمَّ قال بتوتر وخوف:

- رشاد باشا، يوسف أصلان، كان عندي في البيت وكان هيموتني، أنا قلتله على مكان وفاء، غصب عني لو وصلها كلنا هنروح في داهية.

أغلقت المكاملة في وجه، وقف بصعوبة، نزع قطعة من القماش من قميص ملقى أرضًا، لفه حول قدمه مكان الجرح ثمَّ وقف بصعوبة وتحرك في اتجاه الباب

فتحه بهدوء، نظر خارجًا كي يطمئن أنه رحل، أغلق الباب وجلس خلفه يئن وهو دامع العينين يتحسس مواضع آلامه الكثيرة.

***

داخل منزل (دلال) الذي يقتظ بالأطفال واتباعها من النساء، الكثير من الجلبة والكثير من المال والقليل من الرحمة، يطرق الباب فيصمت الجميع، تتحرك إحدى النساء إلى الباب وتنظر عبر فتحة الشراع لتجد إحدى أتباع (دلال) وهي تحمل طفل صغير هزيل يبدو عليه الإرهاق والإعياء الشديد، فتحت لها الباب فدخلت واتجهت إلى حيث تجلس صاحبة النفوذ الكبير، وضعت الطفل أرضًا وقالت:

- لقيت الواد على الرصيف يا معلمه دلال، الواد شكله تعبان أوي، نعمل فيه إيه؟

تركت (دلال) المال التي كانت تحصيه ووضعته في صندوق خشبي بجاورها ثمَّ اتجهت إلى الطفل لتتفقده، أخذت تقلبه يمينًا ويسارًا دون شفقة أو رحمة ثمَّ دفعته بعيدًا وقالت:

- أكلوه وشربوه لحد ما يتحسن بعد كده يتوزع على الشغل.

فتح الطفل عينه بصعوبة ونظر إلى (دلال) مباشرة فسألته بصوت مرتفع:

- اسمك إيه يلا؟

نطق اسمه بصوت ضعيف (آدم) ثمَّ غاب عن الوعي.

***

يقود (عدنان) بسرعة جنونية سيارته حديثة الطراز على أحد الطرق الصحراوية، يرتفع صوته بالغناء ومجاراة الأغنية التي يسمعها عبر (كاسيت) السيارة، هدأ من سرعة سيارته وأخفض صوت الأغاني بعد أن وصلته رسالة من رقم مجهول، توقف على جانب الطريق بعد أن تبين أن الرسالة عبارة عن فيديو.

فتح الرسالة فوجدها فيديو له مع إحدى الفتيات التي يقضي معها ليلة جنسية وكانت تلك هي إحدى الليالي التي يكررها كل فترة وتذكر أنه وجه الفتاة التي كانت برفته آخر مرة وتركته يوسعها ضربًا ويفعل ما يريد دون مقاومة حتَّى ظن أنها معتادة الأمر بل أنها كانت تصرخ أكثر كي تزيد من نشوته وساديته فينفعل أكثر ويتورط أكثر ويظهر أسوأ ما فيه، احتقن وجه وقال:

- يا بنت الكلب، أنتِ مين وراكِ؟

تذكر أنها قابلته في إحدى الملاهي الليلية وعرضت نفسها عليه بطريقة ملحة وجذابة، أنها كانت مكيدة وقد وقع بها بكل غباء وبلاهة، أعاد المقطع من جديد وتأكد أن ملامحه واضحة للغاية وأنه مقبل على كارثة مهنية واجتماعية ستطيح به من أعلى، انفعل وحاول الاتصال بالرقم الذي أرسل هذا المقطع فلم يجيبه حاول من جديد بدون فائدة لقد أغلق الرقم، تضاربت الأفكار داخل رأسه وتعددت الأسئلة، قطع حبل تفكيرة اتصال وارد من رقم جديد، تردد في الإجابة لكنه أجاب بعد تفكير، سمع صوت معدل ليصبح أضخم يقول:

- هطلب منك طلبات محددة، هتنفذها بالحرف الواحد من غير أي أسئلة الفيديو هيفضل سر بيننا، هكلمك من أرقام مختلفة وساعات هتوصلك مني جوابات، متحاولش تتصل بيا أو حتَّى تفكر توصلي، متبقاش غبي وتحاول تفكر، نفذ وبس.

وقبل أن ينطق حرف واحد انتهت المكالمة ثمَّ أغلق بعدها الخط الذي اتصل به، نظر إلى الطريق بجانبه وأخذ يمسح على وجه ويفكر فيما هو مقبل عليه.

***

شاب أقرع الرأس عاري الجسد المتناسق يجلس أعلى فراش ممسك بهاتفه الجوال يكتب رسالة إلى رقم ما (أنا نفذت كل اللي طلبته مني، وصورت كل اللي حصل بيني وبين الدكتور سامي المغازي وخلال ساعة بالكتير هكون جاهز بالفيديو أعمل إيه؟) ثمَّ ضغط على زر إرسال، انتظر دقائق حتَّى وصلته رساله فتحها ليجد بداخلها (الساعة 9 بالليل انزل ميدان طلعت حرب، استنى قدام مطعم القزاز اعمل كأنك بتقرأ قايمة الأسعار هتلاقي شحات هيسيب كل الناس ويجيلك مبتسم ومادد إيده إديله فلوس والميمورى كارد اللي عليه الفيديو ، بعد ما تقرأ الرسالة امسح الرقم ده من عندك وامسح كل الرسايل اللي بينا).

أنهى الشاب قرائة الرسالة ثمَّ مسح جميع الرسائل ووضع الهاتف أعلى كومود بجانب السرير، سمع صوت باب دورة المياه ينفتح ويخرج منه رجل أربعيني عاري، ممتلئ الجسد، خفيف الشعر، اتجه مباشرة إلى الشاب الجالس أعلى الفراش ثمَّ قبله وقال:

- الأسبوع الجاى زي دلوقتى يا ريكو، أوعى تنسى.

بدأ في ارتداء ملابسه حتَّى انتهى ثمَّ أمسك بنظارة وارتداها وتوجه إلى خارج الغرفة ثمَّ سمع (ريكو) صوت انغلاق الباب، هرول إلى دورة المياه وبدأ في التقيؤ.

***

ظلام يحيط بمقابر بالقرب من سفح جبل وبأحد الطرق المظلمة يتحرك (يوسف) ببطء وحذر حتَّى يصل إلى باب مدفن مفتوح ويجلس على أوله رجل غليظ الصوت والطباع ينظر إليه ويقول:

- عايز مين؟

يرد (يوسف) بعد أن فزع من رؤيته يقول:

- المعلم سيد.

يتحدث الرجل بصوت أعلى قائلًا:

- عشان إيه؟

يتماسك (يوسف) ثمَّ يقول:

- جي اشتري حتة سلاح.

يقوم الرجل بتفتيشه ثمَّ يتركه يعبر إلى داخل المدفن ويغلق خلفه، يدخل (يوسف) إلى الداخل ليجد عدة رجال يجلسون أرضًا يحيطون برجل حاد الملامح يجلس أعلى كرسي ويدخن وهو يتحدث إليهم ما أن رأى (يوسف) حتَّى اعتدل وقال:

- أنت مين وعايز إيه؟

يخرج (يوسف) مبلغ من النقود من جيبه وهو يقول:

- أنا اسمي يوسف أصلان من طرف المعلم حامد البنا، أنا في مشكلة وكنت محتاج حتة سلاح.

يمد الرجل يده فيقترب (يوسف) ويضع النقود في كفه ليبدأ في عدها ببراعة رغم ظلام المكان ثمَّ يقول:

- المعلم حامد ده حبيبي بس فلوسك قليلة يدوب حق ضبنجه.

أومأ (يوسف) برأسه وقال:

- ماشي يا معلم اللي تشوفه، هات الطبنجة.

يشير المعلم (سيد) إلى أحد الرجال الجالسون أرضًا فيهرع ويتجه إلى مدخل قبر، يهبط بداخله وسط تعجب من (يوسف) تمر بعض الدقائق ثمَّ يعود الرجل وبيده قطعة قماش يعطيها إلى (يوسف) الذي يمسكها يُكشف ما بداخلها ليجده سلاح ناري، يخرجه من داخل القطعة القماشية ثمَّ يضعه داخل سترته.

طيلة طريق الرجوع إلى الشارع الرئيسي حيث العمر والطمأنينة كان يضع (يوسف) يده على مكان السلاح الناري وهو يفكر فيما هو مقبل عليه، عقله يخبره أنه خاطئ تمامًا فيما يفعله وأن (مريم) ماتت ويحثه على الرجوع إلى رشده وقلبه يؤكد أنها على قيد الحياة وأنها في مكان ما تنتظره وتبكي، طرد كل الأفكار من داخل رأسه وفض الاشتباك بين الاثنين ثمَّ عزم على استكمال ما بدأ فقد دخل بالفعل إلى جوف الكهف ولا مجال للرجوع.

***

داخل مكتب المحامى (رشاد) الذي يجلس خلف مكتبة الضخم يراجع بعض الأوراق والمذكرات التي يجيد صنعتها، ظل بعض الوقت يقرأ بتمعن ويتصفح بعض الكتب والمراجع القانونية حتَّى انتهى، رسم ابتسامة على وجه لا تمت للبشر بصلة، تذكر شيئًا ما، أخرج هاتفه وظل يبحث بداخله حتَّى وجد رقم حمزة، أجرى اتصال وانتظر الاجابة ثمَّ قال:

- أنت عملت غلطة كبيرة في شغلك وأنا عشان راجل جدع بغطي عليك بقالي شوية بس في مسألة لازم أنت تصلحها بنفسك.

يستمع إلى ما يقال ثمَّ يصدر ضحكة مرتفعة ويقول:

- يا بطل اسمعني، أنا هفهمك كل حاجة لما نتقابل، هبعتلك اللوكيشين، لازم المقابلة دي تتم النهارده بالليل ضروري عشان نلحق المشكلة قبل ما تكبر وتبقى مصيبة.

أنهى المكالمة وأرسل اللوكيشين إلى (حمزة) ثمَّ أكمل ما كان يفعله في كتابة المذكرات وصناعة الثغرات في القانون الأشبه بشبكة صيد مترهلة تفقد أكثر مِمَّا تحوي بكثير.

(10)

"المنظور من أعلى يمنح رؤية أفضل بكل تأكيد لكنه يصيبك بالكبرياء الذي يتحول بمرور الوقت إلى غرور وقسوة في القلب، ثمَّ تعتاد الأمر وترغب في الاستمرار هناك فوق رؤوس الجميع، تعتقد أنه أصبح حقك الآن ولا يجوز لغيرك ذلك المكان المرتفع وكلما حاول أحدهم الصعود القيت به من القمة وأنت تنظر إليه بكل رضا وتعالي، هنيئًا لك لقد أصبحت شيطانًا جديدًا توج فوق عرشة من دون أن تشعر".

داخل الصحراء تقف سيارة وحيدة وسط الظلام، أضوائها تحاول جاهدة النفاذ عبر تلك الكتلة الموحشة، يجلس بداخلها (رشاد) يمسك بهاتفه الجوال يبدو عليه الجدية الشديدة والخوف، دقائق من الانتظار والتأفف ليفزع من وقوف (حمزة) بجانب شباك سيارته من الطرف الآخر، ابتسم بعد أن تبين من شخصيته، سمح له بالدخول، فتح باب السيارة وجلس بجوار (رشاد) راسمًا على وجه ابتسامة لا معنى لها وقال:

- أنا جيت أهو، ليه هنا بالذات ؟ رسيني.

أشعل (رشاد) سيجار كوبي فاخر ثمَّ بدأ في تدخينه وقال:

- في عيل اسمه (أصلان) أبو بت صغيرة اسمها (مريم) اتخطفت مع العملية الأخيرة ليك، الواد ده قلبه ميت زيك تمام ونارة قايدة، مش ناوي يسيب حق بنته، قعد ينخور ورا الموضوع لحد ما وصل لسواق توتك توك اسمه (زيزو) وعرف منه كل حاجة، عرف إن اللي خطفت البت (وفاء) بتاعة الدويقة وإن هي بتشتغل لحساب (شبل) بس اللي ميعرفوش إن شبل شغال لحسابك، هو وقف لحد هنا، بس لو إحنا مقطعناش رجله خالص هيعرف كل حاجة وهيودينا كلنا في داهية، أنا يا ميت بقالي فترة بغطي عليك بس ده دورك تصلح غلطة رجالتك.

مسح (حمزة) على وجه ثمَّ قال:

- ماشي، طيب أنت عايزني أقتله ولا أعمل إيه معاه.

أخذ (رشاد) نفس من السيجار وقال:

- متبقاش غشيم، لو قتلته الموضوع هيبقى فيه إنا، في ظابط كتف بكتف مع الواد ده والظابط ده ملوش ملكه ولا سكه لو الواد ده حصله حاجة مش هنخلص منه، بس هو مش موضوعنا دلوقتي، خلينا في (أصلان)، اللي أنا عايزة منك هتعمله بالحرف، عشان مصلحتنا كلنا.

ابتسم (حمزة) وهو يمسك بالسيجار من يد (رشاد) وقال:

- هات اللي عندك، شكلك مش سهل.

نظر (رشاد) إلى (حمزة) باستغراب من فعله وظهرت عليه ملامح الخوف وقال:

- هقولك كل حاجة، بس دي مش هتكون آخر مقابلة لينا، المرة الجاية هتبقى شغل بيني وبينك وبس، إحنا لازم نأمن نفسنا ولا إيه؟.

لمعت عين (حمزة) وأخذ نفس عميق من السيجار ثمَّ أخرجه في وجه (رشاد) الذي بدأ بالكلام.

***

صندوق مليئ بالتماثيل الفرعونية الصغيرة متراصين جنبًا إلى جنب بداخله، ينظر إليه (مديح) باهتمام كبير، يشير إلى رجاله كي يضعوا ذلك الصندوق داخل سيارة تقف بالقرب من الطريق، يحملون الصندوق بهدوء ويضعونه بداخل السيارة، يتحرك (مديح) ويجلس على مقود السيارة، يدير المحرك وقبل أن ينطلق بها يدوي صوت سيارات الشرطة في كل مكان، يهرول الجميع إلى السيارة وينطلق بها (مديح) مسرعًا تاركًا بعضًا من رجاله لم يلحقوا به.

تحاوطه سيارات الشرطة من كل جانب ثمَّ يطلبون منه تسليم نفسه، يأمر

رجاله أن يتركوا السلاح ويهبط من سيارته ويجلس أرضًا واضعًا يده خلف رأسه في غضب.

يتحرك ضابط شرطة ويفتش السيارة ليجد بداخلها الصندوق يفتحه ليجد ذلك العدد الكبير من التماثيل الفرعونية،ينظر إلى (مديح) ومن معة ويقول:

- يا ولاد الكلب، دي فيها مؤبد، ركبهم يا ابني البوكس.

يتحرك العديد من العساكر ورجال الأمن ويقيدون كل من كان معه ويصطحبونه إلى سيارة شرطة ثمَّ يتعالى صوت دوي سيارات الشرطة وهي تتحرك تاركه الصحراء بما تحويها داخل جوفها.

***

بيت يطل وحيدًا بعيدًا عن العمران في أحد أرجاء المدينة المترامية الأطراف، يقف (شبل) أمام مرآة كبيرة الحجم وهو يقوم ببعض التمارين الرياضية الشاقة، ينظر إلى وجهه في غضبٍ، يتذكر شكل زوجته عندما وجدها عارية وقد فارقت الحياة، يتذكر آخر كلمات ابنه (كريم)، ينفعل ويكمل تدريبه بقوة أكبر، يتذكر ملامح ابنه (آدم) الذي لا يعلم مصيرة بعد، لقد تفتت قلبه إلى ثلاث قطع دفن اثنان منهما وباقي واحدة يتمنى أن لا يدفنها هي الأخرى، يتنفس بقوة وتظهر عروقه وهو يتذكر أكثر شخص يكره في الحياة (حمزة)، كم كان ضعيفًا من قبل خوفا على أسرته والآن هو بكامل قوته وغضبه ينتظر اللقاء، ينتظر اليوم الذي سيؤدى به دور ملك الموت ويقبض روحه بيده، ازاداد انفعالًا وبدأت دموعه تخونه وتنهمر رغمًا عنه، جلس أرضًا يبكي وينتحب ويصرخ.

***

في مكان منعزل وبالقرب من مخزن يعج بالضجيج تقف قوات من الشرطة تراقب كل ما يحدث عن كثب، سيارات تدخل وأخرى تخرج من الباب الآخر

له، رجال يحملون السلاح ويبدو عليهم الاحتراف، يتحرك الضابط (هشام) ببطء ويتبعه عدد من القوات، يتحدث الى قائلًا:

- العدد كام يا خالد؟

ينتظر دقائق ليجيبه خالد عبر سماعة يضعها على أذنه قائلًا:

- 4 عند كل باب وأكتر من 20 جوة المخزن يا فندم ده غير اللي في العربيات.

يفكر (هشام) لبعض الدقائق ثمَّ يقول:

- محدش يتحرك من مكانه، هنستنى لما كل العربيات تمشي ونهجم يا رجاله، خالد أنت واللي معاك غطونا أول لما أبدأ الإشارة.

يأتيه صوت خالد يقول:

- الرجالة في مكانها يا فندم كلهم.

مرت أكثر من نصف ساعة وبدأت جميع السيارات تختفي من المكان وبدأ الرجال في إغلاق أبواب المخزن، تحرك (هشام) بترو حتَّى وصل بالقرب من المخزن وقال:

- دلوقتي يا رجالة.

كان الهجوم من على الطرفين كي يمنعوا هروب أي فرد، القناصة أسقطت كل من كانوا يقفون على الأبواب ثمَّ أكملت دورها في التغطية على فريق الاقتحام، بعد دقائق من إطلاق النيران المتبادل تمكن (هشام) ومن معه في السيطرة والقبض على كل من تبقى بعد الاشتباك.

فتشوا المخزن جيدًا فوجدوا كمية كبيرة من المخدرات والهيروين، بحث عن أطفال أو سلاح داخل المخزن فلم يجد، شكر قوات الأمن وأمرهم أن يقتادوا الجيمع إلى قسم الشرطة من أجل التحقيق معهم.

***

داخل فيلا (وجيه غالي) الذي يجلس داخل مكتبة ويظهر عليه الانفعال الشديد، يمسك هاتفه ويتصل ب(أكمل) ينتظر الإجابة ثمَّ يقول:

- وصلك اللي حصل يا أكمل؟

يستمع جيدًا إلى ما يقال ثمَّ يرد بانفعال شديد:

- ده تاني مكان نخسرة في وقت قليل، الموضوع مايتسكتش عليه يا أكمل، إحنا كده بنخس كتير، رجاله وفلوس وسمعه.

استمع مرة أخرى إلى ما يقال إليه ثمَّ رد:

- لا الظابط ده لازم تشوفله صرفه يا أكمل، قبضوه، انقلوه إنشاالله تخلصوا منه وتقتلوه بس المهم نخلص منه.

أنهى المكاملة ثمَّ تحرك نحو البار صب كأس لنفسه وعاد لجلس من جديد خلف مكتبة.

***

الساعة تخطت الثانية عشر بعد منتصف الليل، الأجواء هادية إلى حد ما رغم وجود الكثير من المارة في شوارع تلك المنطقة الفقيرة، تلك الصخرة تهدد أمان ساكنيها في أي وقت يمكن أن تنقض عليها، الأمطار تتساقط على استحياء لكنها تضفي شعور من الخوف والتربص على الأجواء.

يتحرك (يوسف) بخطوات ثابته باتجاه منزل ما، توقف قبل أن يدخل ونظر حوله في كل مكان وضع غطاء الرأس المتصل ب(الجاكيت) الذي يرتديه لإخفاء بعض من ملامحه، صعد إلى الدور الثاني وتوقف أمام الشقة المقصودة، أخرج سكينًا من سترته ووضع يده على الباب فوجده مفتوح، دخل إلى الشقة فوجدها مظلمة، أحس بشيء مريب لكنه أصر أن يكمل الطريق، بحث داخل الشقة عن

(وفاء) فلم يجدها، استمر في البحث عنها حتَّى وجدها نائمة على فراش صغير في إحدى الغرف، تحرك ببطء حتَّى أصبح خلفها مباشرة، وجهها للحائط وظهرها له، أمسك بكتفها وهو يجذبها ويقول:

- مش عايز ولا كلمه.

ليجدها تحمل سكينًا أسفل بطنها وتنزف بشدة، أمسكت به في ألم وقالت له:

- أنا بموت، إلحقني.

وضع يده على السكين في محاولة لإخراجها وسد موضع الجرح لكنها صرخت فتركها، حملها وتحرك بها نحو الصالة الرئيسية، أراد أن ينقذها من الموت وأن تفعل معه المثل وتخبرة عن مكان (مريم) تعثر في منتصف الصالة فسقطت منه، سمع صوت سيارات للشرطة تقترب من المكان، علم أن هناك مكيدة وقد أعدت بإتقان من أجله، لم يستطع المكوث أكثر من ذلك، اتجه إلى السلالم فوجد قوات الشرطة تصعد عليها،هرول إلى أعلى، رآه احد رجال الشرطة فطلب منه أن يتوقف لكنه لم يفعل وظل يهرول حتَّى وصل إلى سطح المنزل ومنه إلى الذي يليه كما هي سمة تلك الأماكن الشعبية، أطلق عليه النار لكنه لم يصاب وتمكن من الهرب، أحس بتأجج النيران أكثر داخل صدرة، لقد كان على بعد خطوة من معرفة مكان (مريم).

تحركت سيارة الإسعاف بداخلها (وفاء) التي كانت تلفظ آخر أنفاسها في محاولة لإنقاذها، تبعتها سيارة شرطة كي تحاول التحقيق معها إن تحسنت حالتها أو قبل وفاتها.

***

صوت سعاله يرتفع ويبدو أن حرارته تتزايد، أفاقت (مريم) على صوته وهو يئن من دون شفقة، وضعت يدها على جبينه المتعرق فشعرت بحرارته، خرجت متسللة من الغرفة وأحضرت قطعة قماش وبعضًا من الماء وأخذت تحاول بطريقة طفولية أن تقلل من حرارته، تذكرت والدها عندما فعل معها المثل من قبل، ظلت تسقيه المياه وتضع له (كمادات) حتَّى حل الصباح وتحسنت حالته.

نظر لها في براءة وقال:

- أنتِ اسمك إيه؟ أنا آدم.

ابتسمت له وقالت:

- مريم.

(11)

"الخطوط تتشابك للغاية، الكثير من الشخصيات والتوجهات، القليل يسعى إلى النور والقليل يبقى داخل الظلام قابعًا إلى النهاية".

الشمس بدأت تتخذ ساترًا وتعلن عن رحيلها تاركة (نور) تنظر لها في أسى وحزن، تذكرها بغياب اِبنتها وحبيبها، حبيبها رغم كل شيء، رغم أنه أضاع أغلى ما يملكون، قطع آخر خيط كانت ترتجف بشدة من أن ينقطع وقد حدث، تعلم أنه لم يكن بإمكانه منع خطفها، تعلم جيدًا أنه يحترق من الداخل ولن تهدأ نارة حتَّى تصبح مريم بين يديه، جلست تنتظر رجوعهم معًا فهي تأبى رجوعه وحيدًا، تأبى أن تسلب بسمتها ومستقبلها، تتحس مواضع نومها وتستنشق عبق ملابسها، تشتاق لها، تراها تهرول بين حين والآخر داخل أروقة المنزل، تضحك كلما تذكرتها ثمَّ سرعان ما تبكي لفقدانها، تفكر كثيرًا في حالها ونومها وأكلها وخوفها، تفكر به، لم يعد منذ بضعة أيام، كيف حاله الآن، أجن جنونه وأصبح هائمًا في الشوارع، تبًا للقدر وترتيباته القاسية، لطالما كانت ساخطة من الظروف لطالما كانت تخشى أشياء وتحدث، غلبها النوم وهي تحتضن فستانها وقميصه بعد أن امتزجوا بدموعها، أظلمت حياتها ولم يتبقَ لها شيء سوى الخوف والحزن رفيقان.

***

الدخان الكثيف يملئ الحجرة الصغيرة التي تحوي الشيطان نفسه جالسًا فوق عرشة داخل الظلام ينظر إلى شاشات العرض التي تراقب كل أنحاء المصنع من الداخل والخارج، لفت انتباهه ذلك الرجل الذي يقترب مهرولًا إلى باب المصنع، أمسك بسلاحة وتحرك مسرعًا خروجًا من تلك الغرفة.

وصل الرجل إلى باب المصنع وأخذ يطرق عليه، يبدو عليه الإرهاق والتعب

الشديد، اقترب حمزة من الباب ثمَّ فتح القفل وحرر الجنزير الحديدي وجذب الرجل إلى الداخل ثمَّ أغلق خلفه.

الظلام يعم المكان إلا من ضوء للقمر يدخل من أحد شبابيك المصنع المتحطمة، قال (حمزة) بصوت مرتفع:

- أنت شغال مع مديح صح؟

بصوت مرهق قال:

- صح يا حمزة باشا.

علم (حمزة) أن هناك خطب ما قد حدث فقال:

- إيه اللي حصل ؟ اتقبض عليه؟

رد الرجل بسرعة وخوف من بطش حمزة:

- أنا الوحيد اللي عرفت أهرب وجيتلك عالطول، مديح اِتمسك بالآثار كلها، في حد خان وبلغ الحكومة، لازم نتصرف قبل ما رجلينا كلها تيجي والعيال اللي هناك تعترف علينا.

تحرك (حمزة) مبتعدًا عن ذلك الرجل ثمَّ قال:

- احكيلي هربت إزاي يا... فكرني باسمك؟

ارتبك الرجل ثمَّ قال:

- طه يا حمزة باشا طه، أنا كنت آخر واحد من الرجالة هركب العربية، مديح ركب وأول ما دور الموتور الحكومة كبست من كل حتة، مخدوش بالهم مني، اتداريت منهم في الصحرا وأول ما بعدوا طلعت على الطريق وجيتلك عالطول.

صعد (حمزة) على أول سلمه من الحديد ثمَّ جلس وقال:

- أنت من امتى بتشتغل مرشد للحكومة يا طه؟

تحرك الرجل للخلف بعد أن أحس بخطر وقال:

- مرشد!!! أنا مش مرشد يا حمزة باشا، الكلام اللي وصلك مش صحيح.

شد (حمزة) أجزاء السلاح الناري وقال:

- بس أنا محدش وصلي حاجة يا طه، بص قدامك خيار من الاتنين، يا إما تفضل تنكر وتحاول تضحك عليا وده مستحيل يحصل وساعتها رصاصة واحدة هتكون ردي على طريقتك دي أو انك تقولي كل حاجة تعرفها من ساعة ما اشتغلت مرشد للحكومة لحد دلوقتي وساعتها ممكن تعيش.

حاول (طه) التقدم خطوات للأمام فأشار له (حمزة) أن يقف مكانه، ابتلع ريقة وقال:

- أنا اشتغلت معاهم غصب عني، اتمسكت بحته آثار كنت مقلبها من ورا مديح وحاولت أصرفها بطريقتي بس كنت غبي، الظابط اللي مسكني قالي إنه مش عايزني هو عايز اللي ورايا، وافقت مضطر ووعدني إنه يخرجني من القضية لو سلمته الراجل الكبير.

ابتسم الشيطان فأظهر وجه المخيف وقال:

- وأنت جاي هنا عشان تسلمهم الراس الكبيرة صح؟

ارتفع معدل الأدرينالن في دماء (طه) وقال:

- لا يا حمزة باشا، أنا جاي أشتغل معاك، جايلك تديني الثقة وأقعد على كرسي مديح اللي اتحرق، أنا قدها.

ارتفعت ضحكة (حمزة) وقال:

- قدها!!! يا راجل ده أنت اتمسكت بحته آثار قد كف إيدك، هتعدي إزاي

اللي كان بيعديه مديح؟ أنا نسيت أسألك أنت في حد كان مراقبك وأنت جاي؟ قولي بصراحة، عشان أديك الثقة اللي بتطلبها لازم تديني الثقة.

ابتسم (طه) وقال:

- أنا معادي مع الظابط بكره الصبح زي ما اتفق معايا، أنا خططت لكل ده، هبقى بتاعك ومنيم الحكومة، إيه رأيك فيا؟

- حمار وغبي.

تغيرت ملامح (طه) وحاول أن يتفوه بكلمة فارتفع صوت (حمزة) قائلًا:

- اللى يفكر إنه ممكن يضحك على حمزة الميت بقصة عبيطة زي دي يبقى حمار يا طه واللي يفكر ينيم الحكومة بعد ما كشفته على حسب كلامك يبقى غبي، وأنا أكتر اتنين بكرههم في حياتي الحمار والغبي وأنت اجتمعت فيك الصفتين.

ثمَّ وقف وأطلق عدة رصاصات اخترقت جسد (طه) الذي وقع أرضًا يحتضر وهو ينظر إلى (حمزة) الذي تركه وصعد أعلى السلالم حتَّى وصل أمام الغرفة، أخرج هاتفه الجوال وهو ينظر إلى جسد (طه) بعد همد تمامًا وأجرى اتصال هاتفيًّا انتظر إجابته ثمَّ قال:

- أكمل باشا، مديح اتمسك بالبضاعة كلها، أوامرك.

استمع بحرص إلى ما يقال إليه ثمَّ رد:

- تمام إلى أكمل باشا، هستنى تليفونك.

أغلق الهاتف ثمَّ نظر إلى أعلى في حنق، استدار، دخل إلى غرفته وأغلق خلفة الباب وكأنه لم يقتل أحدهم وما زالت جثته ترقد أرضًا بعد أن أحدث بها بعض الفجوات.

***

منزل مهجور في أحد الأماكن الفقيرة يمسك (يوسف) بجريدة ما مختصة بالحوادث وجدها صدفة في طريقة ويقرأ خبر أصابه بالخوف والفزع وقد جاء به (محاولة قتل سيدة في منطقة الدويقة تدعى وفاء أبو المجد دسوقي وهي الآن بين الحياة والموت بعد أن تم طعنها بسكين في منطقة مميته من الصدر وبعد التحريات ورفع البصمات من علي أداة الجريمة تبين شخصية الجاني ويُدعى (يوسف إبراهيم أصلان) انتهى من قراءة الخبر المنتشر في الجرائد وعلم أنه الآن قد تم الإيقاع به، فكر في الخروج من ذلك المأذق ولم يجد حل، تذكر الضابط (هشام) أخرج هاتفه المغلق طوال الوقت ثمَّ شغله وأجرى اتصال به:

- هشام باشا.

سمع صوت هشام عبر الهاتف وهو يقول منفعلًا:

- أنت إيه اللي هببته ده يا أصلان؟ أنا مش قلتلك خليك برة الموضوع وسيبنا نشوف شغلنا، حاولت تقتلتها ليه يا أخي؟ وديت نفسك في داهية.

تحدث (يوسف) بصوت مختنق وقال:

- يا هشام باشا اسمعني، مش أنا اللي حاولت اقتلها، أنا رحت لقت السكينة في بطنها وحاولت أنقذها وأوديها للإسعاف لقيت البوليس طب على المكان، أنا اتعملي كمين هناك.

صمت الاثنين ثمَّ أكمل يوسف:

- والله ده اللي حصل، أنا مش بتاع قتل ولا بلطجة، أنا عايز بنتي وهي دي اللي خطفتها.

ارتفع صوت هشام:

- وأنت عرفت منين يا أصلان؟ أنت زي الغرقان وبتطبش.

قال يوسف:

- أنا رحت لزيزو هو اعترفلي على كل حاجة.

قال هشام:

- قصدك أجبرته على الاعتراف فكلم اللي وراه واترتبلك كل حاجة وأنت روحت شيلت الليلة كلها، الله ينور.

ارتفع صوت يوسف:

- وكنت عايزني أعمل إيه، إذا كان أنتوا مش عارفين ترجعوا مريم أو حتَّى تمسكوا اللى خطفها، كان لازم اتصرف.

ارتفع صوت هشام هو الآخر:

- عشان إحنا بنمشي بالقانون يا أصلان مش أي حاجة والسلام.

صمت يوسف قليلًا ثمَّ قال:

- مش كل حاجة بتتاخد بالقانون يا هشام باشا، أنا مش بتصل بيك عشان أبرر لك اللي عملته أنا لو الزمن رجع بيا هعمل اللي عملته ألف مرة، أنا بتصل بيك عشان أعرفك إني بريء، عايز تصدق صدق مش عايز يبقى كتر ألف خيرك.

دقائق من الصمت قطعها صوت الضابط (هشام) بعد أن فكر في كلام (يوسف) وقال:

- مصدقك يا أصلان، مصدقك، أنت لازم تفضل مختفي، اِقفل تلفونك ده وهات شريحة جديدة كلمني منها، متحاولش توصل لأهلك خالص، أنت الفترة الجاية هتبقى مطارد من كل الداخلية، لما تكلمني هقولك ممكن نتصرف إزاي بس المرة دي لازم تنفذ كلامي.

أنهى (يوسف) المكالمة ثمَّ أغلق هاتفه، أحس إنه يشعر بالعجز لأول مرة في

حياته، ابنته خطفت وهو أصبح مطارد، تذكر أمه التي لم يراها منذ وقت ليس بالقصير، كان يخشى أن يذهب إليها من دون مريم والآن يخشى الذهاب إليها ويتم القبض عليه، تضاربت الأفكار داخل عقله وتكاتلت الهموم على نفسه، أخرج الشريحة وكسرها إلى نصفين ثمَّ جلس أرضًا مستندًا على حائط إيل للسقوط، أخرج علبة السجائر ثمَّ أشعل واحدة وبدأ في تدخينها، نظر إلى أعلى ثمَّ قال (يا رب).

***

كابوس يؤرق منامه، يجعله يتعرق بغزارة، حبيس هو بداخله يريد الخروج لكنه يفشل، هناك من يطارده بسكين يقطر دمًا، كلما ابتعد عنه وجده يتبعه في كل مكان، الطريق مسدود من أمامه والقاتل من خلفه، اقترب منه للغاية، لا يتبين ملامحه، رفع السكين وقبل أن يهبط على صدره أفاق من نومه يصرخ.

الغرفه مظلمة والجو ملبد بالدخان، إضاءة الأباجورة لا تعمل، صوت نعل حذاء يقترب على مسامعه ثمَّ يتوقف أمامه في الظلام، يرتجف خوفًا، أفاق من كابوس على كابوس آخر أشد وطأة، فتحت إضاءة حفيفة وظهر شخص يجلس أمام الضوء مباشرة على كرسي بالقرب من الفراش الذي يعلوه.

اِعتدل وحاول التحدث فقال ذلك الشخص بصوتٍ معدل:

- اهدى يا عدنان، أنا مش جاي أقتلك، الشيطان حب يقابلك بنفسه، بس لو زعلتني منك أومنفذتش كل الطلابات هقتلك، فاهمني.

أومأ عدنان برأسه دليلًا على الموافقة فقال الشخص:

- عظيم، يبقى تسمعني كويس.

***

فتح باب الشقة فتبدد الظلام في الداخل، دخل يترنح وكاد أن يسقط، فتح الإضاءة بصعوبة بالغة، أغلق الباب بعد أن كاد يتركه مفتوحًا، اِعتاد أن يشرب كثيراً بعد قضاء يومه الطويل بين الموتى وتشريح أجسادهم، عمله كطبيب شرعي جعله غريب الأطوار، تغيرت به أشياء كثيرة، أفكاره، اتجاهاته، ميولة حتَّى الجنسية منها، اِرتطمت قدمه بشيء ما موضوع أرضًا، انحنى بجسده المنهك ليتبين ماهية ذلك الشيء ليجد سي دي، تعجب من وجوده هنا، أمسك به ووضعه داخل اللاب توب الخاص به، وجد بداخله العشرات من مقاطع الفيديو، فتح أحدهما ليعود إليه وعيه سريعًا وتتطاير آثار الخمور من داخله، إنه مقطع مصور يجمعه مع ريكو بعلاقة حميمة، فزع، تفقد الآخرون ليجد أنه تم تسجيل كل ليلة شاذة قضاها برفقة (ريكو)، استشاط غضبًا، أخرج السي دي وحطمة، وصلته رسالة من شخص مجهول، فتحها ليجد بداخلها نص مكتوب (دكتور سامي، السي دي اللي وصلك في منه نسخ كتير غير اللي كسرتها، ريكو نفذ اللي اطلب منه زي ما أنت هتنفذ اللي هيطلب منك، خليك جاهز الأيام الجاية، متحاولش تفهم حاجة دلوقتي، هتفهم بعدين، نفذ وبس).

ألقى بهاتفه أرضًا وجلس مهمومًا يفكر بمدى تأثير تلك الفيديوهات على حياته الشخصية والعملية إذا خرجت إلى العامة، حقًّا ستكون كارثة، أخرج زجاجة صغيرة من جيبة بها مشروبة السحري وبدأ يتجرع مها حتَّى ثمَّل من جديد.

***

خطوات سريعة واثقة لشاب طويل الجسد، حاد الملامح، أبيض البشرة وعينين زرقاوان ، يحمل نسرين فوق كتفي بدلته الميري، كلما مر من أمام أحد داخل جهاز المباحث الجنائية أدوا له التحية العسكرية، وصل إلى باب مكتب مكتوب

عليه (العقيد / طارق رمضان) طرق الباب ثمَّ دخل المكتب، أدى التحية إلى قائدة المباشر الذي يبدو عليه الجدية المماثلة وأشار له بالجلوس، أعطى له ملف وقال:

- جلال، أنا اخترتك للقضية دي عشان المكان ده بالذات بقى في مشاكل كتير مشابه، قتل وسرقة بالإكراه وشروع في قتل، اِبدأ بالملف ده وهاتلي نتايج سريعة، المنطقة دي لازم تنضف يا جلال، القضية دي مهمة لأنها حصلت لواحدة ست معروفة جدًا في منطقتها وليها أتباع كتير، هي لسه عايشة، المتهم شاب ضربها بالسكينة وهرب، الغريب إن مفيش أي حاجة تم سرقتها من البيت ولا تم الاعتداء جنسيًّا على المجني عليها، لازم تجيب الواد ده ونعرف مين اللي وراه، في قضايا مشابه كتير في نفس المنطقة اتقيدت ضد مجهول، وارد جدًا يكون الواد ده هو اللي نفذها والمرة دي غلط ووقع، بالتوفيق يا حضرة الرائد.

وقف الرائد (جلال الجريدلي) أدى التحية العسكرية وخرج مسرعًا في طريقة إلى ذلك القاتل المتسلسل الذي يبدو وأنه أخطأ وللمرة الأولى.

(12)

"الطريق المظلم يتسع ظلامه، الطقس البارد يزداد برودة، الجسد المنهك يحتضر ببطء، الأنفاس تتعالى والأنفس ترتعش، لم يعد هناك مجالًا للرجوع، أصبح عليك إكمال ما بدأته مع الشيطان".

ضاقت به السبل وأصبح من غير الممكن أن يستمر هكذا، مختبئ ضعيف، لن يفعل القانون كل شيء ولن يفي بالغرض في تلك الحالة، تبا لخطواته الثقيلة متباعدة الأيام، أما هو او هي، سلامته أو سلامتها، أحس أن عليه الخروج من ذلك الجحر الضيق الذي لا يليق به، أخذ قراره ولملم أفكاره وأشياءه وعزم على معاودة البحث عن ابنته، هناك أشياء لن يفعلها غيرك وإن أمكنه ذلك، القدر بارع في اختيار الطرق لنا وعلينا أن نمضي بداخلها للنهاية.

الشارع أصبح أكثر هدوءًا في ذلك الوقت المتأخر من الليل، تحرك ببطء في اتجاه منزل أمه، ساقه القدر إليها طواعية، أراد أن يراها مهما كلفه الأمر، وصل إلى باب العقار ودلف إلى الداخل بخطوات سريعة، كان هناك من يراقبه وأخرج هاتفه ثمَّ أجرى اتصال سريع فور دخوله إلى العقار.

طرقات سريعة يطرقها (يوسف) على الباب، سمع صوت أمه من الداخل تقول (حاضر، جاية، اصبر ياللي بتخبط) ازدادت ضربات قلبه أضعاف، هنا فقط يشعر بالأمان وبين أحضانها ينعم بالطمأنينة، الأم تبقى الأمان وإن كانت تحت الثرى بمجرد تذكرها ترتاح النفوس.

فتحت الباب فارتمى في حضنها بكايا، عاد كطفل صغير أمام ناظرها، احتفظت به بالقرب من قلبها وهي تمسح على شعره في حنان، لم تسأله لكنها علمت بكل شيء من أنينه المكتوم، ظل يبكي لدقائق حتَّى قبلت رأسه، اعتدل ونظر إلى وجهها شاكيًا، ابتسمت له وقالت:

- هون عليك يا يوسف، هون عليك يا ابني، ليك رب كبير.

مسح دموعه وهو جالس أرضًا ينظر إليها ثمَّ قال:

- مريم اتخطفت.

شعرت بألم في قلبها لكنها دارتها وقالت:

- راجعة بأمر الله، راجعة يا أصلان، ربنا كريم.

صمت لثواني يحاول تصديقها وقال:

- أنا الحكومة عايزة تقبض عليها.

لم تستطعْ تحمل تلك المرة الألم وقالت:

- لية يا بني؟ أنت عملت إيه؟

مسح وجه بيده وقال بصوت مختنق:

- كنت بحاول أوصل للي خطف مريم، اتعملي كمين ووقعت فيه، الحكومة فاكرة إني كنت عايز أقتل اللي خطفتها، بس والله أنا رحت لقيتها مضروبة بالسكينة وحاولت إسعادها.

ظهرت الدموع داخل عينها، حاولت حبسها لكنها فشلت فسقطت واحدة، هرول إليها (يوسف) ومسح دموعها وقال:

- لا يا أما، دموعك لا، أنا جايلك بهموم الدنيا عشان أشيلهالك، أنا جاي ارتاح هنا مش أتعبك.

نظرت له في خوف ثمَّ تماسكت وقالت:

- بص يا ابني، مريم راجعة بأمر الله وأنت ابن حلال وربنا عمره ما يرضى بالظلم أبدًا، طريقك واتكتب عليك تمشية، أمشيه بالخير بس يا ابني، أمشيه بالخير يا أصلان، خد حقك بس متفتريش ومتخليش حد يفتري عليك.

أنهت كلماتها، قبل يدها وهم أن يرحل، أحس برغبة ملحة أن يظل هنا معها لكنه يعلم أنه هنا معرض للقبض عليه في أي لحظة، وقف وقبل أن يصل إلى الباب فتحه أحدهم بركله قوية ليعود إلى الخلف في رهبة، ظهر عدد كبير من أفراد الشرطة يقتحمون المكان، حاول الهرب لكنهم أمسكوا به وقيدوه، ظهر الرائد (جلال الجريدلي) قادمًا من باب الشقة، نظر إلى (يوسف) في غل وقال:

- أنت كنت فاكر إنك هتفضل هربان كتير؟ تبقى غبي.

هرولت أمه إلى الرائد (جلال) وقالت:

- أصلان بريء والله، أنت شكلك ابن حلال، ابني معملش حاجة ده كان بيدور على بنته وولاد الحرام وقعوه.

نظر (جلال) إلى أمه وقال:

- كل حاجة هتبان في التحقيقات يا حجة.

ثمَّ خرج من الباب وأمر العساكر أن يحضروه، نظر (يوسف) إلى أمه بعين دامعة لكنه أبى أن يجر إلى أسفل، وقف وتحرك معهم وهو ما زال معلق نظرة بأمه ليس خوفًا مما هو مقبل عليه بل خوفًا عليها.

دوى صوت سيارات الشرطة في المنطقة ليتجمع كل أهل المنطقة ويشاهدون (يوسف) وهو يركب سيارة الشرطة ويقبض عليه، تسائل الجميع عن السبب وانتشر الخبر سريعًا، رحلت سيارة الشرطة وظلت الأم تبكي على حال ابنها، أحست بألم حاد في قلبها واختل توازنها، استندت على الحوائط حتَّى تمكنت من الوصول إلى كرسي جلست فوقه وفقدت الوعي.

صعدت (ملك) إلى الشقة كي تطمأن على حالها لأنها تعلم أنها ستتاثر بذلك، دخلت الشقة فوجدتها فاقدة للوعي، هرولت إلى أسفل تبحث عن طبيب ينجدها.

***

داخل مكتب وكيل النيابة يقف (مديح) وبيده القيود ينظر إلى (رشاد) الذي يجلس بكل دهاء يتابع التحقيق، ينظر إلى وكيل النيابة وهو ينهي على آمال (مديح) في البراءة، حاول أن يراوغ أكثر من مرة لكنه فشل وأثبتت التهمة عليه ويبدو أن الأمور سائت للغاية وخرجت عن سيطرة (رشاد)، انتهى التحقيق بأدانه (مديح) ومن معة بالإتجار في الآثار وتهريبها خارج مصر وأحيلت أوراق التحقيقات إلى المحكمة للبت فيها.

شكر (رشاد) وكيل النيابة ثمَّ اقترب من أذن مديح وقال:

- متقلقش، القصة لسه طويلة، أي حاجة هتحاتجها جوه السجن هتلاقيها، هخرجك في الاستئناف أو النقض دي لعبتي.

ثمَّ ابتسم له ابتسامة مصطنعة وتركه وغادر، فور خروجه أخرج هاتفه الجوال وأجرى اتصال (أكمل) انتظر إجابته وقال:

- أكمل باشا، الموضوع اتعقد جدًا، القضية لابسه مديح لبساه، مديح لو وصل المحكمة مش هنقدر نعمل حاجة وساعتها هيعترف عليكم بالاسم، ده وسخ وجبان، أنا من رأى ننفذ الخطة البديلة.

أغلق المكالمة وتحرك إلى سيارته أدار محركها ثمَّ انطلق بها وصلته رسالة من (نجلاء) ابتسم ونظر بداخلها ليجدها تدعوة إلى العشاء وقضاء ليلة حمراء أخرى فابنتها (لارا) في سفر والمكان خالي له تمامًا.

***

داخل أحد المطاعم الفاخرة الذي يطل على النيل مباشرة يجلس (عدنان) يتناول غدائه وهو ينظر إلى طرابيزة تجمع عدد من رجال الأعمال وبجانبهم اِمرأة ترتدي ملابس تظهر أكثر مِمَّا تخفي، يتظاهر بأنه ما زال يتناول الطعام ويخرج هاتفه الجوال يلتقط لهم بعض الصور ثمَّ يسجل لهم أكثر من فيديو ويرسلهم إلى

رقم ما، يكمل طعامه بطريقة طبيعية، يطلب الحساب ثمَّ يدفع ويتحرك مسرعًا باتجاه سيارته وينطلق بها.

***

داخل مكتب النقيب(هشام) الذي يجلس منهمكًا في قراءة ملفات ما أمامه، يبدو عليه الإرهاق الشديد ويبدو أنه لم ينل قسطًا من الراحة طوال أيام، يلمح بعينه صورة ل(يوسف) على إحدى شاشة التلفاز الذي أمامه ويرفع من صوت التلفاز ليجد خبر القبض عليه ويعلم أن من كلف بتلك القضية هو الرائد (جلال الجريدلي) هو يعلمه جيدًا لأنه عمل معه لمدة تجاوزت العامين ويعلم عنه الجدية وعدم التهاون مع المجرمين وتصديق أقوالهم أبدًا، يتعامل فقط بالقانون وينسى روح القانون.

ظهرت على ملامحة علامات الغضب وانفعل بشدة وهو يقول:

- لية بس يا أصلان، أنا قلتلك خليك مستخبي يا أخي.

***

رائحة المرض والعَطن تملأ المكان عن آخره، الأطفال متراصون أرضًا في كل بقاع الغرفة المظلمة يغطون في نوم عميق، مجهدين الجسد الوروح، بالقرب من شباك صغير يتيح رؤية جزء ضئيل من الشارع تجلس مريم وهي تبكي وتضع يدها على الحديد الذي يفصل بينها وبين زجاج الشباك، تشتاق إلى أبويها، أفاق (آدم) على صوت بكائها واقترب منها، وضع يده على كتفها فتنبهت له ونظرت له في خوف وقالت:

- أنا عايزة أرجع لبابا وماما، أنا خايفة أوي من الست اللي اسمها دلال دي، مش عارفة ليه حبسانا هنا وبتضربنا، أنت بباك ومماتك مش وحشينك يا آدم؟.

تذكر الطفل الصغير ما حل بأمه قبل أن يهربه أخيه الأكبر منه وتذكر غياب والده عنهم دائمًا وأنه لم يكنْ متواجد وقت اقتحام هؤلاء الرجال المنزل، أفاق على سؤالها بعد أن تكرر وقال:

- واحشني أوي، متقلقيش هنهرب من هنا قريب يا مريم وهترجعي ليهم.

احتضنته ببراءة وقالت:

- توعدني يا آدم؟

احتضنها بقوة وقال:

- أوعدك.

***

شارع مظلم خالي من المارة إلا من بعض القطط التي تهرول كلما اقترب أحدًا منها أو عند شعورها بالخطر، أصوات نباح الكلاب هي السمة المميزة في ذلك الشارع، خيال يقترب ل(حمزة) وهو يقترب مسرعًا ليدخل إلى ذلك الشارع ثمَّ توارى داخل ظلام أحد العقارات، اقترب شخص آخر يهرول ويبدو أنه كان يطارد (حمزة) ينظر إلى الشارع المظلم، يخرج سلاحة الناري ويتحرك بخطوات حريصة إلى قلب الظلام، يفزع من قط يهرول فجأة من تحت قدمه، يتفحص المكان بنظراته التي لا تسعفه ثمَّ يتلقى طعنه في رقبته من الخلف ليظهر نصل السكين من حنجرته ويقع أرضًا يحتضر، يمسك برقبته محاولًا منع سيلان الدماء وهو ينظر إلى وجه (حمزة) المبتسم له وهو ينظف السكين ويضعه في جيبه ثمَّ يتركه يعاني ألم الاحتضار القاسي ويرحل.

(13)

"الخوف، اليأس، الظلم، الكبر، الخيانة، القسوة والكذب، كلهم بيادق على رقعة الشيطان، يتلاعب دائمًا بمن يحملون تلك الأمراض كيفما أراد، يعطي لهم ترياق زائف ثمَّ يضحي بهم من أجل قطعة أفضل على رقعته".

قيوده الداخلية تفوق قيود يده، حزنه أكثر أثر على وجه من طول شعر ذقنه، اللون الأسود أحاط بعينيه من كل الاتجاهات واحتل نفسه بينما تكفل الأصفر بسائر وجه النحيل، أحضروه من الزنزانة وأوقفوه أمام وكيل النيابة، بينما كان يجلس الرائد (جلال الجريدلي) واضعًا قدمًا فوق الأخرى في انتظار بدء التحقيق معه.

توالت الأسئلة على مسامعة وكانت الإجابات فاترة منه حتَّى سُئل عن سبب محاولة قتله ل(وفاء) فقال (يوسف):

- أنا محاولتش أقتلها، أنا روحت بيتها عشان أعرف مكان بنتي المخطوفة، اسألوا حتَّى اللي دلني على مكانها.

ابتسم وكيل النيابة وقال:

- زيزو!! اه ما كان هنا من شوية واعترف إنك شوهته وكنت هتموته لحد لما اعترف بأي كلام عشان تسيبه يعيش، يا راجل ده أنت كسحته، ولنفترض إنك كنت رايح تسألها عن بنتك المخطوفة، رايح تسألها في وقت متأخر زي ده ليه غير إنك كنت هتموتها أو تعذبها لحد ما تقولك أي حاجة هي كمان عشان تعيش، أنت متعلم وعارف القانون، ليه مسبتش القانون يجيب حق بنتك؟

انفعل (يوسف) وقال:

- وهو القانون عرف يجيب حتَّى اسم اللي خطفها ؟ إنتوا عاوزني أسيب حق بنتي عشان قانون عقيم؟

ارتفع صوت وكيل النيابة وقال:

- احترم نفسك ووطي صوتك أنت في تحقيق رسمي، أنت متهم بشروع في قتل واحدة وضرب مبرح لشخص تاني وكمان في قضايا ممكن تلبسها زيادة لو ثبتت التحقيقات ده، لكن في الوقت الحالي أنت حظك حلو أن المجني عليها لسه عايشة وهي الوحيدة اللي ممكن تعترف بالحقيقة وتقول مين اللي حاول يقتلها، هتفضل مشرفنا شوية لحد ما نستجوبها لمَّا حالتها تسمح وبعد كده يا تخرج من هنا براءة يا علي حبل المشنقة.

ينتهي التحقيق ويحضر أمين شرطة يمسك ب(يوسف) ويخرجه من مكتب وكيل النيابة ثمَّ إلى الزنزانة وهو في حالة يُرثى لها.

***

دخان يتصاعد من سيجار فاخر ممسكة به يد أحدهم، يرتدي خاتم ذهبي في أصغر أصابعه التي يمسك بها السيجار بينما يده الأخرى ترتكز على عكاز أسود يحمل رأس أسد فضي، يجلس خلف مكتب عظيم موضوع أعلاه رقعة شطرنج ينظر لها بتركيز، مستندًا بظهرة على كرسي وثير غالي الثمَّن، ملامحمة حادة للغاية لكنه دائم الابتسام كأنه خلق هكذا، شعره أسود يشوبه بعض البياض، وجه منحوت وجسد متناسق، يرتدي بدله سوداء فاخرة، يفكر بعمق كبير في تلك الأزمة التي حلت عليه وعلى أتباعه في العمل، في بداية الأمر خسر أكثر أهم الأماكن التي كان يبيع من خلالها المخدرات والسلاح والآن تمكنت الحكومة من القبض على أحد أكثر التابعين له أهمية في تجارة الآثار، طرق باب مكتبة فنزع السيجار من فهمه وأخرج دخان كثيف وقال:

- ادخل.

فتح باب المكتب فظهر من خلفه شاب ضخم الجسد يحمل سلاحًا موضوع بجانبه طوال الوقت، قال بصوت مرتفع:

- زكريا باشا، أكمل بيه ومروان بيه ووجيه بيه عاوزين يقابلوا سعادتك حسب الميعاد اللي بينكم.

نظر إلى ساعة يده فوجدها الخامسة مساء إلَّا خمس دقائق، نظر إلى ساعة الحائط فوجدها مطابقة تمامًا، اشار إلى الحارس بعكازة وقال:

- ميعادهم الساعة خمسة، يدخلوا خمسة بالدقيقة.

انسحب الشاب ضخم الجسد وأغلق الباب تاركًا (زكريا) ينظر إلى تلك الرقعة من جديد ثمَّ حرك بيدق إلى الأمام واتسعت بسمته، ظل يحرك قطع الطرفين باهتمام كبير كأنه يلاعب شخص آخر حتَّى مرت الخمس دقائق، فتح باب المكتب وظهر من خلفه (أكمل) و(وجيه) و(مروان) يتقدمون ببطء حتَّى استقروا واقفين أمام المكتب بصمت، نظر لهام (زكريا) وقال وهو يحرك قطعة أخرى على رقعة الشطرنج:

- هممم، وصلنا لفين ؟ الأمور ماشيه كويس؟

نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض ثمَّ قال (أكمل):

- كل حاجة كانت ماشيه كويس يا زكريا باشا لحد ما ظهر ظابط جديد في الصورة اسمه هشام وبدأ ينخرب ورانا ده غير إن أهم رجاله لينا اتمسك بكمية كبيرة من الآثار.

توقف (زكريا) عن التحديق برقعة الشطرنج وعاد بظهرة وقال:

- مش مهم الآثار، المهم الراجل بتاعنا ما دام مهم، خرجوه بأي طريقة ويكمل شغله عادي.

رد (أكمل) بسرعة وقال:

- طب والظابط يا زكريا باشا؟

ارتفع صوت (زكريا) رغم أنه ما زال محتفظ بابتسامته قائلًا:

- قتل ظباط مفيش، فاهمين؟ ليه سكه ادخلوله منها ملوش يبقى غلطتكم، لكن قتل لا، الداخلية اتغيرت عن زمان يا بهوات، البلد كلها اتغيرت والأبرة لو وقعت على الأرض في الصعيد بتسمعها الداخلية في القاهرة وبتجيب الأبرة واللي رماها وإحنا شغلنا دايمًا من غير صوت ولا حس، إحنا مش موجودين أصلًا، وطول ما إحنا مش موجودين يبقى في أمان، فاهمين؟ ولا تحبوا اقلب الطرابيزة واجيب اللي تحتيكوا فوقيكم ونبدل كراسي.

رد الثلاثة خلف بعضهم سريعًا:

- فاهمين يا زكريا باشا.

أشار لهم بالعكاز فتحركوا في اتجاه باب المكتب صامتين تمامًا، يبدو أن خلف كل عفريت شيطان وأن خلف كل شيطان مارد وأن خلف كل مارد أبلس وقد كثر الأبالسة.

***

وسط الزحام الخانق تتحرك (ملك) وهي ممسكة بكيس يحوي بعض الخضروات وهي في طريقها إلى منزل (يوسف) القديم الذي تقيم به أمه التي أصبحت مريضة منذ ذلك اليوم الذي رأت به ابنها يجر أمامها إلى مصير مجهول وأصبحت طريحة الفراش.

صعدت (ملك) السلالم في حزن على ما آلت إليه الأمور، تبكي حالها وتتذكر كيف اختار (يوسف) في السابق أن يتزوج من (نور) ويتركها هي، هي من أحبته بصدق، والآن هي من ترعى أمه بدلًا عنها، لكن لا يهم فهي ما زالت تكن لها وله كل حب ومودة، فتحت باب المنزل ودخلت وهي تقول بصوتٍ مرتفع:

- أنا جبتلك يا ماما شوية خضار وهعمل أحلى شربة تستاهل بؤك.

لم تلقَ رد منها كالعادة بالدعاء أو الشكر، تركت الكيس أعلى منضدة وهرولت إلى غرفة النوم، وجدتها هامدة الجسد لا يعلو صدرها بالتنفس، أوجست خيفة واقتربت منها، وضعت أذنها بالقرب من قلبها كي تستمع إلى أي نبض يطمأنها لكن لا وجود لنبض، رجتها بقوة من دون استجابه، سقطت دموعها قهرًا وهي تقول:

- ماما ؟ ماما ردي عليا عشان خاطر ربنا، يوسف مش هيستحمل جرح تاني في قلبه، ماما.

ثمَّ صرخت بأعلى صوت لها وتجمع كل السكان والجيران حول جثمَّانها يبكونها ويترحمون عليها.

تم كل شيء سريعًا، الغسل، ثمَّ الجنازة، تبعها الكثير من أهل المنطقة دفنوها وسط بكاء وانتحاب، تاورى جسدها قبل أن يودع غائبًا لم يعلم حتَّى بموت أمه، ثمَّ رحل الجميع وانتهى كل شيء.

***

داخل مكتب النقيب (هشام) يجلس خلف مكتبة وعلى الطرف الآخر يجلس الرائد (جلال الجريدلي)، ينظرون إلى بعضهم البعض، كلا منهم تقدم خطوات في مكانه وأصبحوا على قدر من الدقة وفهم الأمور بشكلها الصحيح، انتهوا الاثنين من احتساء قوهتهما ثمَّ بدأ (هشام) كلامه قائلًا:

- أنا مبسوط جدًا انك وافقت تيجي تزورني هنا، أنا عارف مشاغلك الله يكون في العون.

ابتسم (جلال) وقال:

- وعارف كمان السبب ورا طلب زيارتي، أصلان مش كده؟

ابتسم (هشام) هو الآخر وقال:

- عمري ما شكيت في ذكائك، صح كلامك يا جلال باشا، أنا عايز اتكلم معاك شوية لودة مش هيضايقك وصدقني مش تدخل في شغلك.

أخرج (جلال) علبة سجائرة وأخرى واحدة أشعلها وقال:

- معنديش مانع يا هشام باشا، بس أرجوك اتكلم بصفتك ظابط شرطة بعيدًا عن المشاعر والتعاطف، يعني بالقانون أقصد.

أومأ (هشام) برأسه وقال:

- ماشي، بس أنا هتكلم بروح القانون، أصلان بريء والدليل الفيديو اللي سجله لرشاد وزيزو والفيديو اللي سجله لزيزو في بيته، مش شايف الموضوع غريب يا جلال باشا؟

اعتدل (جلال) وقال:

- طب ليه مسجلش هوعند وفاء يا هشام باشا، يعني سجل مرتين لزيزو وكسل في التالتة مع وفاء، سيادتك بتقنعي بأية، أداة الجريمة موجودة وعليها بصماته، ومش شرط الفيدوهات التانية تدل على حاجة، رشاد ده مش المحامي بتاع زيزو يبقى أكيد بينهم تعاملات، أنا معاك إن غريبة إن المحامي يدي فلوس لموكل بس إحنا متأكدناش إن دي فلوس، واعترف الواد كان تحت تهديد السلاح يا باشا يعني خلصان الموضوع ولو كان احتمال براءته 1 في المائة يبقى عند وفاء مش

حاجة تانية، لو وفاء فاقت وقالت إنه مش هو يبقى القضيتين اتحلت، قضيتي وقضيت، أنا ابقى عرفت الجاني الحقيقي وأنت عرفت مين اللي خطف بنته وبقية العيال الصغيرة.

مسح (هشام) على وجه وعلى أن الطريق في الحوار مع ضابط بخصال (جلال) مسدود فقال:

- صح كلامك يا جلال باشا، يبقى نستني نشوف أقوال وفاء.

أكملوا الجلسة في الحديث عن أشياء مختلفة دامت لساعات ثمَّ انتهى اللقاء وغادر الرائد (جلال) المكتب تاركًا (هشام) في حيرةٍ وحزن على حال (يوسف).

***

داخل المنزل الكئيب الذي يحوي عدة أطفال مشردين من كل البقاع الفقيرة، تتحرك (دلال) بجسدها الأنثوي الممتلئ رغم كبر سنها في اتجاه الغرفة التي ينام بها الأطفال ليلًا، صوت أسوارها الذهبية يحدث صوتًا تنبه له الجميع، فتحت الباب كوحش كأسر على وشك أن يفتك بفريسته، أضائت الأنوار فأفاق الجميع من سباتهم، أمسكت بحزام معلق أعدته خصيصًا للعقاب ثمَّ بدات في ضرب جميع الأطفال عشوائيًّا وتعالت الصرخات، ظلت تضربهم قرابة النصف ساعة حتَّى أنهكها التعب وقالت بصوتٍ مرتفع:

- ده عشان في اتنين منكم حاولوا يهربوا النهارده، أنا محدش يقدر يهرب مني، إنتوا ملكوش حد تاني غيري ولا ليكوا مكان تاني غير ده، فاهمين؟

ظل الأطفال يبكون وينظرون إلى بعضهم البعض في خوف وهم يرتعشون، أغلقت عليهم الحجرة من الخارج بإحكام ثمَّ عادت إلى غرفتها وهي تسحب في يدها مراهق يبدو عليه الخوف والفزع فيما هو مقبل عليه، أغلق علية الغرفة ثمَّ خلعت ملابسها وجلست فوق الفراش وقالت له أمرة:

- اقلع هدومك كلها وتعالى جنبي هنا.

نظر لها ذلك المراهق في خوف، خلع ملابسه وتحرك نحوها يرتعش لا يعلم ما هو مقبل عليه.

***

موسيقى هادئة تدوي نغماتها في كل ركن من ذلك المكان فائق الجمال، مطعم فاخر في أحد الأماكن المرموقة، وهناك على أحد الأماكن المعزولة عن البقية يجلس (عدنان) وعلى الطرف الآخر من المنضدة تجلس (نرمين) تنظر له في تعجب، ابتسم لها في هدوء وقال:

- أنا هطير من الفرحة إنك قبلتي عزومتي يا نرمين.

بادلته الابتسامة وقالت:

- أنا كمان مبسوطة، معلش أنا عارفه إنك طلبت ده كتير وأنا كنت برفض، أنت عارف ضغط الشغل، كمان أنا مبعرفش أخد على الناس بسرعة.

حاول (عدنان) مسك يدها فأبعتدها بكسوف ووضعت خصلة من شعرها خلف أذنها في دلال، اتسعت بسمته وقال:

- أنا مش زعلان إنك رفضتي عرضي أكتر من مرة، المهم إني قاعد معاكِ أهو ولوحدينا، بصي أنا مش بحب ألف وأدور كتير وهكلمك بصراحة، أنا معجب بيكِ من فترة وحابب أقرب منك أكتر.

أومأت (نرمين) برأسها بالموافقة وقالت:

- أنا كمان حاسه ناحيتك بحاجة، مش قادرة أحدد لسه ده إعجاب ولا حاجة تانية.

حرك يده مرة أخرى وحاول الإمساك بيدها فتركتها له، نظر داخل عينها

فوجدها لامعة للغاية، لوهلة أحس بحركة داخل قلبه لم يعتدها من قبل لكنه تذكر أنه مكلف بالتقرب منها من أجل غرض ما لا يعلمه بل يعمله الشيطان الذي يراقب شيء، تذكر أنه مسخ يتلذذ بتعذيب ذلك الجنس وأن شهوته لا تكتمل إلا بآلامهم، ذلك الشعور كان دخيل على قلبه الأسود، تادرك الأمر سريعًا وطلب مشروب إضافي وظل يتحدثان طيلة الليل حتَّى فرغ المكان من معظم زوارة.

***

داخل إحدى البقاع الصحراوية يستند (حمزة) على دراجته النارية وهو يدخن سيجارة ويطلق دخانها في السماء السوداء، ينتظر قدوم أحدهم وقد أصابة الملل والريبة، دقائق واقتربت سيارة يعلمها جيدًا، حضر سلاحة الناري ووضعه خلف ظهره في وضع الاستعداد.

توقفت السيارة وهبط منها (رشاد) ممسك بحقيبة سوداء، تحرك خطوات ليقف بين كشافي السيارة مقابلًا ل(حمزة) الذي قال وهو يلقى سيجارة أرضًا:

- أنا نفسى أعرف إيه سبب الشحططة دي، ما كنا نتقابل في المكتب عندك أو المصنع عندي، أنت ليه حاطفنا في آخر الدنيا ده إحنا قربنا من الواحات يا أخي.

وضع (رشاد) الحقيبة أرضًا بين قدمي (حمزة) وقال:

- مضطر يا ميت، إحنا بنشتغل لحساب شياطين، اه إحنا شياطين بس مش قدهم.

نظر (حمزة) إلى الحقيبة السوداء وقال:

- إيه الشنطة دي يا متر؟

استند (رشاد) إلى جسد سيارته وقال:

- البيزنس دة لوحة شطرنج كبيرة، في ملك وفي وزير وفي جنود درجاتهم وأهميتهم بتختلف، ممكن نضحي بأي قطعة بس الملك لا صح؟

تجهم وجه (حمزة) وقال:

- أنا مبفهمش في اللعبة دي يا متر، قولي أنت عايز إيه بالبلدي كده.

أصدر (رشاد) ضحكة وقال:

- أنت نفسك بتلعب اللعبة دي كل يوم، أنت نفسك ملك على اللوحة بتاعتك يا ميت، اللي أنا أقصده إن إحنا مجرد عساكر وأكمل واللي زية ملوك واللعبة بتاعتنا دي فيها ملوك كتير وكل واحد بيحاول يكسب، الملك ممكن يضحي بأي حد من عساكرة في أي وقت اللي هما زي وزيك عشان كدة لازم العسكري يكون واعي وعامل حسابه ولما يجي وقت التضحية بيه يترقى ويكبر ويبقى ملك، يبقى معاه ورق يساوم بيه.

أنهى كلماته وأشار إلى الحقيبة السوداء الموضوعة أرضًا وأكمل:

- الشنطة دي فيها ورق يودي أكمل ومروان ووجيه في ستين داهية، في كل تاريخهم الأسود بالأرقام والتواريخ، أنا معايا نسخة وأنت معاك زيهم دلوقتي.

ظهرت معالم التعجب على وجه (حمزة) وقال:

- وأنت مش خايف إني أبلغ أكمل باشا بده؟

ابتسم (رشاد) وقال:

- أنا قلتلك بقى، الملك مبيهموش غير نفسه، إحنا مجرد عساكر وساعات الملك بيقرر يضحي بواحد فينا بس لو إحنا حامين بعض محدش هيقدر علينا.

نظر (حمزة) إلى الحقيبة ثمَّ إلى (رشاد) وقال:

- والمقابل ؟ أنا اتعلمت إن كل حاجة ليها مقابل يا متر.

اتجه (رشاد) إلى سيارته فتح الباب ثمَّ نظر إلى حمزة وقال:

- اعتبرها عربون محبة وعهد، يوم ما تاخد الأمر بتصفيتي ابقى بلغني اهرب، اتفقنا؟

أمسك (حمزة) بالحقيبة وقال:

- اتفقنا يا متر.

تحرك كل واحدا منهم في طريق مختلف لكنهم ما زالوا بيادق على رقعة شطرنج تحمل ملكين وهناك من يحركهم رغم ذلك من خلف الكواليس.

(14)

"قواعد اللعبة تتغير دائمًا، هناك أوراق في يد الجميع وأخرى داخل ستراتهم يخرجونها وقتما شاؤا في خفة ودهاء، عليك أن تعلم أن تلك الحياة ما هي إلَّا لعبة قمار طويلة المدى ولا أحد يفوز في النهاية بل يخسر الجميع ثمَّ يرحلون ويجلسون آخرون أماكنهم على نفس المنضدة بأوجه مزيفة".

داخل إحدى المستشفيات الحكومية يقترب أمين شرطة من باب غرفة يقف أمامها عسكري لا يتحرك، يصل الأمين أمام الغرفة وينظر إلى العسكري ويقول:

- روح يا محمد هاتلي كوباية شاي بسرعة.

يهرول العسكري وهويقول:

- حاضر يا أمين حامد.

بعد أن ابتعد العسكري، فتح الأمين (حامد) الحجرة ودلف إلى الداخل ثمَّ أغلقها ليجد فراش حديدي ومن فوقه تغط (وفاء) في نوم عميق، متصل بيدها بعض من أنابيب المحاليل ويبدو عليها الإعياء الشديد من أثر الطعنة التي تلقتها، يقترب منها في هدوء ثمَّ يمسك بوسادة موضعة على أحد الكراسي ويضعها فوق رأس (وفاء) خانق إياها، ترتجف أطرافها لكنها لا تقوى على أبعاد الوسادة من فوقها، بعد عدة ثوان تخور قواها ويهمد جسدها معلنًا عن مفارقة روحها لجسد يحمل أسرار ومن بينهم براءة مظلوم.

يخرج الأمين (حامد) من الغرفة في هدوء ويقف أمام الغرفة في انتظار قدوم ذلك العسكري، عدة دقائق ويصل وهو يحمل كوب من الشاي يقترب به من الأمين ويقول:

- الشاي يا أمين حامد.

يتردد (حامد) ويظهر عليه الارتباك فيقول وهو يبتعد مسرعًا:

- اشربة أنت يا محمد بالهنا والشفا.

***

باب يفتح ويدخل من خلفه (يوسف) مقيد اليدين، يتفاجئ بوجود زوجته (نور) وصديقة (سيد الخولي) يبتسم لهم في أسى، يأمر الرائد (جلال) أن تفك قيودة، يقترب منه ويضع يده على كتفه بطريقة غير مفوهمة له ثمَّ يغادر هو ومن معه إلى الخارج تاركًا (يوسف) برفقة زوجته وصديقه.

يجلس (يوسف) بالقرب من (نور) ويقول لها:

- أنا بريء يا نور والله، أنا معملتش حاجة.

لا تجيبه فينظر إلى (سيد) ويقول له:

- متحرمش منك يا سيد، مش عارف أودي جمايلك فين.

يتعجب من صمتهم ثمَّ تسقط دمعه سهوًا من عين (نور) يتنبه لها (يوسف) ويشعر أن هناك خطب ما فيسأل:

- في إيه يا نور؟ مالها يا خولي؟ في حاجة حصلت ولا إيه؟ عرفتوا حاجة عن مريم؟ حد يرد عليا.

يتردد (سيد) ثمَّ يقول:

- البقاء لله يا أصلان، أمك تعيش أنت.

سهم آخر اخترق قلبه ونفذ من ظهره فقسمه إلى نصفين، هربت الدموع من عينه وأصاب جسده رعشة خاطفة، تذكر آخر لقاء بينهم وأحس بالذنب، تماسك وقال:

- ماتت امتى؟

يرد عليه (سيد) بأسى قائلًا:

- ماتت الأسبوع اللي فات ودفناها في نفس اليوم وكانت خارجتها أحسن خارجة وعملنا عزا كمان، أخوك سداد يا أصلان.

بكى حرقة وهو يحرك يده على صدره في محاولة لمواسه قلبه الذي يُدمى شوقا وقال لنفسه:

- أسبوع، ادفنت من غير ابنها الوحيد ما يكون جنبها، يارتني مكانك أنا يا اما، يا رتني أنا اللي مت من زمان أوي.

نظر إلى أعلى ثمَّ وقف وتركهم واتجه إلى باب المكتب فتحه وخرج منه غير مودعًا لهم، اقترب منه العسكري ليقيده فأشار له الرائد (جلال) إلا يفعل، تحرك في طريق الحجز هو يجرجر آلامه خلفه كأصفاد تزن أطنان.

***

المصطنع مكتظ بالرجال الذين يلتفون حول (حمزة) وهو جالس فوق كرسى حديدي ويرتفع صوته قائلًا:

- الباشا الكبير صرف لكل واحد فيكم 100 ألف جنيه هتاخدوا نصهم دلوقتي ونصهم بعد العملية، يلا دلعوا نفسكم.

تتهلل أسارير الرجال الملتفون حوله فيقاطع بهجتهم قائلًا:

- المهم يا رجالة، مديح هيتم ترحيله بعد أسبوع واحد من النيابة للسجن العمومي، هنكون جاهزين وهقفل على عربية الترحيلات ونعزلها عن الحراسة، الرجالة هتتعامل من 4 عربيات جيب اتنين هيهجموا من قدام واتنين من ورا وأنا هتكفل بالباقي وهاخد مديح معايا، المهم إن كل ده لازم يتم بسرعة ومفيش واحد يتمسك مننا، فاهمين؟

يتعالى صوت الرجال قائلين (فاهمين يا حمزة باشا):

ينصرف الجميع كل ممسك بكيس يحوي مبلغ مالي كبير تاركين (حمزة) جالسا في منتصف المصنع وهو يدخن سيجارة ويفكر في كيفية إتمام تلك العملية من دون أن تفشل.

***

داخل فيلا (أكمل) الفاخرة، هناك عددًا كبير من الحضور من رجال الأعمال ورجال الدولة يتبادلون المحادثات والاتفاقات، بينما يدور بينهم (أكمل) ممسك بيد زوجته (مرفت) بطريقة كلاسيكية كحال تلك الحفلات، بعد برهة من الوقت ينفصل الاثنين ويختلط كل منهم بالحضور. وأصدقاءه، وصل (عدنان) برفقة (نرمين) إلى ذلك الحفل وكل منهم يرتدي ملابس منابة تمامًا لتلك النوعية من الحفلات.

بحثت (نرمين) بعينها على (ميرفت) حتَّى وجدتها ثمَّ استأذنت من (عدنان) أن تذهب لتقضي معها بعض الوقت بينما يفعل هو المثل مع أحد معارفة وهم كثر في تلك الحفل، يمسك بيدها ثمَّ يقبلها وبيده الأخرى يضع هاتفه الجوال على وضع التسجيل داخل حقيبة يدها دون أن تشعر.

تتحرك (نرمين) في اتجاه (ميرفت) تقبلها وتنفرد بها في حديقة الفيلا الخلفية، يجلسون ويتحدثون عن أمر ما ودت إخبارها به في مقابلة خاصة.

انتهي اليوم سريعًا وبدأ الحضور في الانصراف كذلك فعل (عدنان) و(نرمين) وبطريقة ما استطاع بها إخراج هاتفة الجوال من حقيبتها من دون أن تشعر ثمَّ رحلا سويًّا.

***

داخل مكتب الرائد (جلال الجريدلي) الذي يجلس خلف مكتبه يشعل سيجارة وعلى وجه الغضب الشديد وهو ينظر إلى الأمين (حامد) بغل، يأخذ نفس عميق من السجارة ثمَّ يقول:

- أنت متصور وأنت بتخنقها في أوضة المستشفى بتنكر إيه أنا مش فاهم، الكاميرات جابتك يا حضرة الأمين، أحسنلك تعترف قتلتها ليه.

يرتجف جسد الأمين (حامد) ويتعرق جبينه ثمَّ يهم بقول شيء لكنه يتراجع ويقول:

- مقلتلهاش يا جلال باشا، أنا راجل بقالي 20 سنة في الخدمة وملفي كله نضيف، أكيد في حاجة غلط والفيديو ده مش صح يا باشا.

يقف (جلال) من خلف مكتبة ويتجه إلى (حامد) ليقف أمامه ويقول:

- ماشي هنودي التسجيل الأدلة الجنائية اللي أنا متأكد إنها هتقول إن التسجيل سليم، طب والعسكري محمد اللي قال إنك بعته يجيبلك شاي ولما رجع لقاء مرتبك وسيبته ومشيت بعدها بساعة واحدة بس اكتشفوا موتها وهو بيأكد أن مفيش حد دخل ولا خرج غيره ده كمان غلط ؟

يتحدث (حامد) بصوت مرتبك ويقول:

- يا باشا السكري محمد ده أنا مصحية من خدمته يبقى إزاي أنا آخر واحد دخلت وخرجت من الأوضة يعني؟

يمرر (جلال) يده من بين خصلات شعره ثمَّ يقول:

- ماشي يا حامد، كلها يومين ونتيجة المعمل الجنائي توصل، أنا مش عارف إنك بتحاول تكسب وقت لمين بس، شكلك ناوي تلبس القضية لوحدك.

ينفعل (حامد) ويقول فجأة:

- أصلان هو اللي طلب مني أقتلها يا جلال باشا.

تعجب (جلال) وقال:

- أنت عايز تقنعني أن الواد اللي ممكن دليل براءته تكون بكلمة من الست دي هو اللي يبقى عايز يقتلها ويطلب منك ده؟

ينظر (حامد) إلى الأرض ويقول:

- أصلان عارف إنها لو كانت اتكلمت كانت هتحكي عن بلاوي كتير عملها كفيلة إنها توديه لحبل المشنقة لكن موتها هيتقيد شروع في قتل كبيرة 15 سنة.

ارتفع صوت (جلال) قائلًا:

- ودلوقتي بعد ما انكشف الموضوع إنتوا الاتنين هتاخدوا إعدام بعون الله.

صمت (حامد) ولم يتفوه بكلمة أخرى ويبدو أنه كان لديه رسالة يريد أن يوصلها للرائد (جلال) وقد نجح بذلك.

***

صوت ال(شيشة) يتعالى ثمَّ يخرج دخان من بين شفتي (دلال) التي تجلس فوق كرسي خشبي كبير وهي تستمع إلى أغاني قديمة وتحاول مجاراتها بصوتها المبحوح، تنظر إلى الأساور الذهبية التي تملأ زراعيها بالكامل، تخرج هاتفها الجوال ثمَّ تبحث عن رقم ما وتتصل به وما أن يجيب تقول:

- واحشني يا ميت، إيه نسيت الأيام الحلوة ونسيت دلال ودلع دلال.

تستمع إلى ما يقال ثمَّ ترد:

- وأنا هغلب يا حمزة؟ أنت عارف إني أقدر أجيب رقمك وأجيبك هنا شخصيًّا بس قولت أنت تيجي بشوقك تقضي ليلة معايا من بتاعة زمان بس المرة دي برضاك.

تستمع ثمَّ تصدر ضحكة مرتفعة ترج جدران المنزل المتهالك وتقول:

- هستناك الخميس، أنت عارف إن الخميس ده مزاجه بيبقى عالي عندي، ومتنساش تجيبلي هدية وأنت جاي ولا عايز تدوق اللحم الأبيض ببلاش يا عنيا.

تستمع ثمَّ تصدر ضحكة أخرى مماثلة وتغلق الهاتف، تكمل تدخين من ال(شيشة) وتخرج داخل كثيف من أنفها وتصدر سعالًا مرتفع وتكمل غناء.

(15)

"اعتقادك أن الأمور ستتحسن من تلقاء نفسها خطأ كبير، القدر أكثر صلابة من أن تطوعه باعتقاد، عجزك عن تحسين أوضاعك لا يعود لشخص آخر بل أنت وفقط أنت، السفينة عندما تحترق وتبدأ في الغرق يموت من تشبث قبل من غادرها بدقائق وربما بساعات أو سنوات حتَّى".

بعد التحقيقات المطولة التي أجرتها النيابة وبعد قتل (وفاء) واعتراف الأمين (حامد) أن (يوسف) هو من أغواة بقتلها مقابل مبلغ مالي ضخم أصبحت القضية مكتملة الأركان الآن وقررت النيابة إحالة كلًّا منهما إلى المحكمة للبت في تلك القضية متكاملة الأركان (الفعل مع سبق الإصرار والترصد).

لم يتفوه (يوسف) بكلمة واحدة في التهم الموجه إليه بل ظل واقفًا يقلب نظرة بين الجميع، مِمَّا أكد التحمة ونسبها إليه، هو في مكان آخر لا يشعر بما يحدث حوله، كهف مظلم بارد للغاية، عقل منهك من التفكير وقلب يحتضر من الحزن والفراق، لم يروا ذلك ولم يرحمه أحد بل أراد كلا منهم تسديد طعنة إضافية في جسده الميت وهو لا يبالي.

ركب سيارة الترحيلات يشاركه الأمين (حامد) القيود يتحاشى النظر إليه، وكلما اهتزت سيارة الترحيلات تذكر أحد الغائبين عنه، أمه ثمَّ ابنته ثمَّ زوجته ثمَّ حياته التي انتهت في طرفة عين.

***

باب مسكن (يوسف) يطرق عدة مرات، تقترب (نور) وهي ترتدي ملابس سودا حداد على أمها بالنسب وعلى ابنتها الغائب وأيضًا على حبيبها وزوجها، يبدو أنها ترتدي السواد حدادًا على حياتها كلها، تحمل الدموع داخل عينها وقلبها معًا، فتحت الباب فوجدت (سيد الخولي) يقف مبتسمًا.

لم تفهم ما تعنيه بسمته في تلك الظروف، لم يتقد مخطوة واحدة إلى الداخل ثمَّ قال:

- مش هتقوليلي ادخل ولا إيه؟

نظرت (نور) إليه بتعجب ثمَّ قالت:

- البيت مفيهوش راجل يا سيد، أنت جاي ليه وأنت عارف إني هنا لوحدي؟

تغيرت ملامح (سيد) ووضع يده في جيبه وأخرج مبلغ مالي وقال:

- إيه يا نور؟ أنا برده بتاع الكلام ده؟ أنتِ تهميني وأنتِ عارفه ده؟ خدي الفلوس دى خليها معاكِ أنا عارف الحال.

امتنعت (نور) على أخذ المال لكنه أصر وقال:

- أصلان ليه عندي كتير وأنتِ لسه في عصمته يبقى تاخدى الفلوس دي ولما ربنا ييسر وتقلعي الأسود ده وتبقى مش ملك حد أبقي بطلي تاخدى مني فلوس إلا برضاكِ.

لم تفهم إلى ما يرمي إليه (سيد) لكنها لم تسأل وأمسكت بالمال فهي في حاجة إليه بالفعل، انتظرت مغادرته ثمَّ أغلقت الباب واتجهت إلى غرفتها ثمَّ ارتمت على فراشها تبكي.

***

جسده الصغير ينتفض من قسوة الكابوس الذي يأبى تركه بسلام، يرى أمه في كل يوم تمزق ملابسها وينهال عليها الرجال بالضرب ثمَّ يقترب أحدهم أصلع الرأس ويلقى بجسده فوقها، يشير له أخوة أن يهرب من الباب الخلفي فيفعل لكنه يظل ينظر من فرق للباب، يرى أخوه يحاول منع ذلك الرجل عن أمه فيطلق عليه رصاصة تخترق جسده ويقع أرضًا، يسحبوه إلى الخارج، ينظر إليه من جديد فيحثه على الهرب فيفعل.

أفاق صارخًا وهو يبكي، لا يريد تذكر ما حدث مرة أخرى يريد فقد الذاكرة لكن الذكرى تأبى أن تفقده، يتنبه إلى يده (مريم) تمد إليه بزجاجة بلاستيكية تحوي ماء، يشرب بشراهة ثمَّ يعود إلى النوم من جديد وهو يرتعش.

***

صوت هاتف جوال يتعالى رنينه، يد تمتد لتفتح الإضاءة بجانبه تعود إلى شاب "ضخم الجسد مفتول العضلات، قمحي البشرة ومجعد الشعر الأسود، لديه بعض العلامات بوجهه ورقبته ويدة من أثر العراك المستمر الذي يزاوله، غائر العينان السوداوين وبهم حدة وجهل".

أمسك بالهاتف وأجاب بصوت يتعالى أنفاسه وقال:

- ألو، مين معايا.

استمع بعدم تركيز إلى ما يقال ثمَّ هبط من فوق فراشه ونظر إلى زوجته النائمة بجوارة ثمَّ غادر الحجرة وهو يقول:

- تمام، وهو أنا أقدر أرفضلك أمر يا باشا، بكر طول عمره في الخدمة.

يستمع بحرص إلى مال يقال ثمَّ قال:

- مسافة السكة.

أغلق الهاتف واتجه إلى دورة المياه، خلع ملابسه ليظهر جسد مغطي بالكثير من علامات الجروح، انهمرت المياه الساخنة فوق رأسه وجسده وهو مفتوح العينين وينظر إلى اِنعكاس صورته في المرآة.

***

قميص نوم أحمر ضيق للغاية على جسدها المترهل، الكثير من مستحضرات التجميل تملئ وجهها الذي ظهرت به تجاعيد تدل على كبر السن، زجاجة عطر نفاذ الرائحة أفرغت نصفها، تهيأت له كما لم تفعل من قبل، شهوتها أصبحت مرض يقودها دائمًا من دون مكابح أو لجام، تعشق قطف الثمَّار التي لا تمكلها ولا يحق لها لمسها، كل ما مرت به جعلها مسخ متحجر القلب ممتلئ بالشهوة، طرق بابها في ميعاده، فتحت له، قبلته وأمسكت بيده تقوده إلى غرفة النوم التي يعرفها جيدًا بكل تفاصيلها، قبلته بشغف، التصقت به وتحسست عضلات جسده فازدادت شهوتها.

أزالت قميصه فترك لها المجال كي تنتطلق حتَّى تحين لحظته، مررت أظافرها على جسدة الشاب فتألم، اِعتدل وصفعها بقوة، وضعت يدها مكان أصابعة ثمَّ نظرت له في تعجب، أمسكت بيده وقبلتها ثمَّ خلعت ملابسها وارتمت فوقه وأحكمت السيطرة، أنساب الجسدين في فوق الفراش الذي بدأ في الضجيج متزامنا مع صوت تأوهاتها المرتفع للغاية والذي يعلو حتَّى سمعه الجميع.

(16)

"خلق الخير وخلق الشر من أجل قضية واحدة، كلًّا منهم اختار أتباعه بدقة بالغة منذ زمن بعيد، حربهم سرمدية لا تنتهي لكن نتيجتها معلومة، في تلك المعركة الطاحنة يتهشم عظام الكثير والكثير من دون سبب معلوم ولا فضيلة تذكر".

أسوار عالية شديدة الحراسة، زنازين متراصة داخل مبنى ضخم يحوي المئات من الخارجون عن العدالة وآلالاف من المظلومين، شعاع بسيط يخترق قضبان إحدى الزنازين حتَّى يصل أرضها يقبل قدم (يوسف) ثمَّ يرحل بعيدًا مع الراحلون، يقترب منه (بشر) الذي لاحظ حزنه ورفضه للأكل منذ وصولهم إلى ذلك المكان، أمسك برغيف ثمَّ قسمه إلى نصفين وقال:

- ابن الأصول ميرفضش عيش وملح، وأنت شكلك ابن أصول.

نظر له (يوسف) ومد يده ثمَّ أخذ بنصف الرغيف وقضم منه إرضاء ل(بشر) الذي قال:

- يا أخي سيبها على الله، الحزن في قلب كل واحد فينا بس لازم يكون متداري، مش هسألك أنت إيه حكايتك ولا إيه اللي جابك هنا بس هقولك على حاجة يمكن مش هتصدقها، تحب تسمعها؟

اعتدل يوسف ثمَّ أكمل مضغ الخبز وابتلعه ثمَّ قال:

- قول.

ابتسم (بشر) وقال:

- أنت حكايتك لسه مخلصتش، مش دي نهايتك، لسه شوية.

تعجب (يوسف) من كلامه لكنه كلام مرسل للغاية وأكثر عمومية من أن يقصده فقال:

- أنت اسمك إيه؟

قال مسرعًا:

- بشر، وأنت؟

قال بصوت منخفض:

- يوسف، يوسف أصلان.

ازدادت بسمة (بشر) وقال:

- أصلان!! مش قلتلك ابن أصول وابن الأصول بيبان عليه، صدقني أنت قصتك لسه منتهتش إنما أنا قربت من النهاية.

اعتدل (يوسف) وأصبح مقابلًا وجها لوجه مع (بشر) وقال:

- أنت تعرف منين؟

قضم (بشر) من الخبز وقال:

- إحساس، وأنا إحساسي عمره ما خيب، تقدر تقول موهبة.

في لك الركن المظلم من الزنزانة كان يجلس (مديح) ينظر إلى كل واحد يرافقه داخل المكان ويحلل شخصيته بجدية كبيرة.

***

صوت سيارة شرطة تتبعها إسعاف تقترب من ترعة تشق أرض زراعية إلى نصفين، يجتمع عدد كبير من الرجال حول جثمَّان لطفلة ماتت غرقًا واستقرت جثتها على إحدى ضفتي الترعة.

وصلت سيارة الشرطة وفريق البحث الجنائي، تم معاينة كل شيء ثمَّ وضع الجثة داخل حاوية أعدت خصيصًا لذلك ونقلها إلى سيارة الإسعاف، تحركت السيارتين وتفرق الجميع وعلى وجههم الحزن على حال تلك الطلفلة التي لقت

حتفها غرقًا وهي في ذلك العمر، لا يعلمون من قتلها ولا يعلمون قصتها لكنهم يعلموا جيدًا إنها عانت قبل أن تموت.

***

أزاحت الغطاء من فوق جسدها العاري ثمَّ تحركت وارتدت روب حريري وجلست على كرسى قريب من الفراش تنظر إلى (فرانشيسكو) الذي اعتدل من نومته وأشعل سيجار وبدأ في تدخينه، وقفت واقترت منه ثمَّ قبلته وقالت:

- أنا عايزة أشتغل لحسابك في مصر.

نظر لها وفهم ما ترمى إليه ثمَّ قال:

- ومروان؟

ارتفع صوتها تأكيدًا لموقفها وقالت:

- أنا أعرف أعمل قد اللي بيعمله مروان 10 مرات بس أنت توافق.

ترك السيجار من يده وأزاح الغطاء هو الآخر ووقف ثمَّ اتجه إلى بار سحب من فوقه زجاجة ويسكي وعاد ليجلس على الفراش ثمَّ قال:

- بتفكرى في إيه يا هند؟

جلست بجانبه على الفراش ثمَّ قالت:

- عايزة أكبر يا فرانشيسكو، عايزة أبقى دراعك في مصر وحبيبتك هنا.

ضمها إلى حضنه وشرب من الزجاجة ثمَّ قال:

- طلباتك إيه؟

أمسكت بالزجاجة من يده ثمَّ قالت:

- الحماية.

قبلها بقوة ثمَّ قال:

- موافق.

اتسعت بسمتها الساحرة ثمَّ عادت أسفل الغطاء وتبعها هو بعد أن أفرغ محتوى الزجاجة على جرعة واحدة.

***

ممسك بهاتفه في تردد، يريد الاتصال به لكنه يعلم أنه لن يعطي له آية معلومات، ضغط على زر الاتصال وانتظر الرد وقال:

- جلال باشا عامل إيه؟

خرج صوت (جلال) من سماعة الهاتف:

- تمام يا هشام بيه، أكيد بتتصل عشان تعرف أخبار أصلان زي العادة.

ابتسم (هشام) وقال:

- أنت عارف أنا متعاطف معاه إزاي؟ وعارف أكتر إنك مش هتقولي على أي معلومة عن شغلك.

قال (جلال) مسرعًا:

- لا أبدًا، وفاء اتقتلت في المستشفى، أمين شرطة قتلها واعترف على حرضة.

ابتهج (هشام) وقال:

- حلو جدًا، مين بقى اللي ورا الموضوع ده؟

قال (جلال):

- اعترف على أصلان، قال أن يوسف هو اللي حرضة، النيابة خدت بأقواله واتحدد لهم جلسة محكمة.

شعر (هشام) بخيبة أمل كبيرة، شكر (جلال) وأغلق المكالمة وهو يعلم أن الجميع أراد الفتك ب(أصلان) فقط لأنه حاول استرداد ما سلبوه إياه، تذكر كلماته الأخيرة عن القانون وعن عجزة وعن الحقوق كيف تسترد.

***

داخل مكتب (أكمل) الذي يتحرك بتوتر ذهابًا وإيابًا بين جدران المكتب بينما يقف (حمزة) بالقرب منه يشاهده وهو صامت تمامًا، يجلس (أكمل) وينظر إلى (حمزة) ويقول له:

- أنت متأكد إنك هتعرف تهربه يا حمزة؟ أنا مش عايز أي غلطات، مديح ده قنبلة موقوتة، أنا بفكر أقتله جوه السجن بس مش هينفع، لسه ليه فايدة لو مكنش ليه كنت ضحيت بيه.

تذكر (حمزة) كلمات (رشاد) عندما أخبره عن رقعة الشطرنج وبيادق الملك الذي من السهل التضحية به ثمَّ سرعان ما رد وقال:

- متقلقش يا أكمل باشا، أنا عارف أنا هعمل إيه كويس، مش أول مرة.

أطال (أكمل) النظر إلى (حمزة) الذي لم ينزع عينه من عين ملك الرقعة التابع له، نظر له في انتظار الترقية المناسبة فقال (أكمل) محفزًا:

- لو نجحت العملية دي هكافئك يا ميت وهتبقى دراعي اليمين والشمال.

ابتسم (حمزة) وقال:

- اعتبر الموضوع خلصان، استنى مني تليفون يا أكمل باشا إن العملية تمت ومديح بقى معانا تاني.

أشار له (أكمل) أن ينصرف فتحرك في اتجاه الباب، فتحه وخرج ثمَّ أغلق خلفه.

***

في وقت متأخر من الليل وأمام مبنى مكتوب أعلاه (المعمل الجنائي)، هناك شاب يهبط درجات السلالم التي تقود إلى الشارع الرئيسي، يبدو عليه الإنهاك الشديد، يتجه نحو سيارته التي تبعد خطوات، يفتح الباب وجلس بداخلها، يضع أوراق على الكرسي الذي بجانبه ثمَّ يشغل المحرك استعادًا للمغادرة، يلمح رجل يرتدي السواد واقفًا على بعد خطوات من السيارة، يضيء الأنوار كي يرى بوضوح فلم يجد أحد واقفًا، يتعجب ثمَّ يصدر هاتفه صوت وصول رسالة، ينتفض من الخوف، يفتح الرسالة ويبدأ في القراءة، يتعجب من كل تلك المعلومات التي يعلمها عنه من أرسل له تلك الرسالة، ويتعجب أكثر من الاتفاق الذي يتحدث عنه من أجل عدم الإفشاء بتلك المعلومات، يترك هاتفه جانبًا ثمَّ ينظر أمامه إلى الطريق ليجد نفس الرجل الذي يرتدي السواد واقفًا أمامه مباشرة يلوح له، يرتبك ويتحرك بالسيارة مبتعدًا عن ذلك الرجل وهو ما زال معلق نظرة عليه في خوف وعدم اِستيعاب.

(17)

"التغيرات التي تطرأ فجأة هي إحدى ترتيبات القدر لك، تسقط أقنعة وتظهر حقائق، تبدل مراكز قوى وتحدث خللًا ما سرعان ما يبدو واقع قائم علينا التعامل معه، عليك أن تكتسب المرونة من أجل ذلك".

على أحد الطرق السريعة وداخل سيارة الترحيلات يجلس (يوسف) وبجانبه (بشر) ينظران إلى بعضهما البعض، يصبر كل منهما الآخر على مصير مجهول، تلك الأيام التي قضوها سويًّا جعلتهم أصدقاء مقربون، الشدة تصنع الصديق وتفضح الصدور، وعلى الجانب الآخر يجلس (مديح) ينظر لهم بتركيز كبير وفي أقصى السيارة يجلس الأمين (حامد) يبكي حاله وما تورط به، لقد هددوه أن يقتلوا عائلته بالكامل إذا لم ينفذ المهمة، لم يكن يعلم بوجود كاميرات فهو رجل قديم الطراز رأى ما رأى من جارئم وأفعال مماصلة مرت مرور الكرام لكن عندما عزم هو على تنفيذ أحداهم كشف وببساطة، ثمَّ أتته التعليمات أن يدين (أصلان) وإلا قتلوه وقتلوا أسرته، وصل مبلغ كبير من المال إليهم سيساعدهم على المعيشة الكريمة، يبدو هذا أكثر منطقية لحياته التي بلا قيمة لهم، فطوال مدة خدمة كانت حياتهم كئيبة فقيرة والآن أصبحوا أغنياء مقابل مستقبله الذي لا قيمة له، تذكر كل وجههم وحاول جاهدًا إخماد نار ضميره المستعر، كان ينظر كل بره إلى (يوسف) في خوف، هو يعلم أن الظلم ظلمات وأن سحر لا بد له وأن ينقلب في يوم على الساحر، يعلم أنه من سدد له آخر طعنة أودت بحياته ومستقبله، أراد بقوة أن يذهب إليه ويترجاه من أجل أن يسامحه لكنه مكبل اليدين واللسان، قرر أن يكمل ما بدأه وليكن ما يكن.

سيارتين جيب تقتربان بسرعة من سيارة الترحيلات ويخرج منهما رجال

يحملون السلاح وفي نفس ذات الوقت ظهرت سيارتين آخرتين من الأمام وبدأوا إطلاق النيران على سيارة الحراسة التي تحمي سيارة الترحيلات.

توقفت سيارة الترحيلات بعد أن سد عليها الطريق، صوت أطلان النيران الكثيف جعل الجميع في حالة خوف عدا (مديح) الذي كان جالسًا في ارتياح وتفهم للأمر، سقط كل رجال الأمن وفتح باب سيارة الترحيلات، دخل (حمزة) مسرعًا إلى الداخل فوجد الكل في حالة ذعر عدا (مديح) الذي كان في انتظاره فقال:

- يلا يا مديح مفيش وقت قدامنا، أخرج أنت وأنا هخلص على الباقي مينفعش يبقى في شهود عليا.

تحرك (مديح) في اتجاه الباب ثمَّ استدار نظر إلى (يوسف) و(بشر) وقال:

- أنا هحتاج الاتنين دول معايا والباقي أنت حر فيهم.

انفعل (حمزة) وقال:

- مينفعش يا مديح أنا عندي أوامر أنت وبس.

ارتفع صوت (مديح) وقال:

- دول من رجالتي يا ميت وابقى بلغ أكمل باشا بكده.

وقف (يوسف) و(بشر) هرولوا مسرعين خلف (مديح) الذي ركب السيارة الجيب وهم من خلفه بينما فتح (حمزة) النيران على كل من كان داخل سيارة الترحيلات بمن فيهم الأمين (حامد) الذي حاول أن يتحدث لكن لم تتاح له الفرصة.

بعد عدة دقائق تحركت السيارت الجيب تاركين كل من كان في سيارة الترحيلات والحراسة أموات.

***

الأصوات تتعالى ممبتزجة بالإضاءة التي تتلاعب بعقول من داخل ذلك المكان المزدحم للغاية، الجميع يتراقص ما بين سكران ومنتشي ومن بينهم (ريكو) الذي يتخطى الحضور في طريقة إلى فتاة تجلس تنظر إلى اللا شيء، يبدو عليها الحزن والاضطراب، اقترب منها وقبلها من رقبتها فنظرت له وابتسمت وقالت:

- ريكو، اتأخر ليه؟ أنا قاعدة هنا من بدري.

ابتسم لها (ريكو) وقال:

- معلش يا شاهندة، كنت بجيب صنف جديد هيعجبك أوي، تحبي تجربي هنا ولا عندي كالعادة.

وقفت (شاهندة) وأمسكت بيد (ريكو) وقالت:

- لا هناك عندك، أنا دماغي بتبقى عالية أوي عندك وكمان بنفوق نلاقي نفسنا وقعنا في الفخ.

ابتسم لها ثمَّ بدأوا يتراقصوا الاثنين سويًّا وانخرطوا داخل تلك الأجساد التي ضلت طريقها.

***

داخل مشرحة ما في إحدى المناطق من القاهرة تدخل إليها (نور) وعلى وجهها الخوف من أن ترى ما لا تحب، تتحرك بخطوات بطيئة ويدها ترتجف، برفقة والدها و(سيد الخوالي)، وصلها هاتف من أحد أفراد الشرطة يخبرها أنهم وجدوا جثة طفلة مطابقة لمواصفات ابنتها (مريم) وإن عليها القدوم إلى المشرحة والتأكد بنفسها.

بالقرب من باب ثلاجات حفظ الجثث جلست أرضًا ولم تستطع الحراك، نظر لها (سيد) وقال:

- خليكِ هنا يا نور، يا حج تعالى ندخل أنا وأنت، إتاكد بنفسك، نور أعصابها مش هتستحمل أكتر من كده.

وافقت (نور) على ذلك الاقتراح وتركتهم يدخلون إلى المشرحة وهي في انهيار تام، دقائق وعاد والدها يبكي ويضع يده على رأس (نور) التي ما أن رأت دموعة غابت عن الوعي من الصدمة.

استلم الجد جثمَّان الطفلة ثمَّ تم كل شيء سريعًا وتمَّ دفنها في مقابر العائلة بجانب جدتها، يبدو أن اللون الأسود لن يفارق قلبها وحياتها.

***

فتح باب الطائرة وبدأ المسافرون في الهبوط واحد تلو الآخر وظهرت (هند) ارتدت نظارتها فور مقابلة الشمس لوجهها المشرق، هبطت سلالم الطائرة في دلال متعمد وسط نظرات الرجال المعجبون بجمالها.

بعد أقل من النصف ساعة ركبت سيارة كانت في انتظارها بعد أن وضعت كل حقائبها في السيارة وأخرجت هاتفها الجوال وطلبت رقم وعندما أجاب قالت:

- إيه الأخبار؟ أنا في مصر جاهز بالشغل ولا إيه أنا راجعة تاني خلال أسبوع والناس مستنية الشغل اللي بعتهولي في الصور ومستعدين يدفعوا جامد وطبعًا أنا نسبتي هتزيد ولا إيه؟.

استمعت بحرص وبدأت ملامح وجهها تتغير وتختفي ابتسامتها إلى الغضب وردت قائلة بصوت عالي:

- لا خد بالك القطة كبرت خلاص وطلعلها سيوف مش دوافر"هند" بتاعت زمان إنساها خالص، بص سواء أنت اللي خلصت الحتة دي أو غيرك فأنا هخرج بيها وأنا مسافرة وبأي ثمَّن حتَّى لو نزلت المقابر بنفسى ومعايا خمسين شيخ من بتوعك اللي مش عارفين يفتحوا حتة مقبرة، وخد بالك كل اللي فات دة كان بمزاجي ولولعبت معاية بعفاريتك اعمل حسابك أنا معايا اللي يحميني ومبقتش أخاف

زي زمان وهضحي بيك حتَّى لو كان إنى أبلغ عنك شرطة الآثار يا،يا باشا ومعايا ملفات كاملة ليك أنت واللي مشغلينك واللي حامينك، سلام.

وبعدها أغلقت الهاتف وأنزلت زجاج السيارة وظلت تنظر إلى الشوارع من حولها وعادت بسمتها المتحجرة مرة أخرى على محياها ووجهها الجميل.

***

تخطت الساعة الثالثة فجرًا، صوت هاتف يتعالى يفيق بسببه النقيب (هشام) يعتدل وينظر إلى شاشة هاتفة فيجد رقم مجهول يجيب ويقول:

- ألو.

يسمع صوت (يسوف) قادمًا إليه:

- هشام باشا، أنا هربت.

يستشيط (هشام) غضبًا ويقول:

- لية يا أصلان، حرام عليك، أنت ليه بتتصرف من غير تفكير يا أخي.

ارتفع صوت (يوسف) قائلًا:

- صدقي مكنش عندى اختيار، عربية الترحيلات اتهاجمت واتصفى كل طقم الحراسة وكان لازم أوافق أروح معاهم، حتَّى الأمين حامد اتقتل.

اعتدل (هشام) وأصبحت قدماه موضوعة أرضًا وقال:

- يعنى أنت لبست الجريمة لوحدك دلوقتي يا أصلان، خليك على اتصال بيا ومحدش عارف إيه ممكن يحصل قدام.

أنهى المكالمة ثمَّ وقف واتجه إلى الشرفة ينظر إلى السماء السوداء، يحاول معرفة من وراء كل ما يحدث، أهو حقًا إنسان أم شيطان يتوارى عن أعيننا ويتلاعب بنا.

(18)

"عندما تتكاتل عليك الظروف وتغرب الشمس مودعة إياك، عندما يتركك الجميع من دون رجعة، عندما تفقد كل شيء وكل شخص، استعد لعودة الشمس وتغير الظروف وهجر الجميع واكتساب أشياء جديدة باقية معك ما دمت باقيًا".

مر أكثر من شهر على بقاء (يوسف) و(بشر) مع (مديح) داخل المصنع الموجود داخل الصحراء في ضيافة (حمزة) الذي يغيب لساعات تاركهم ثمَّ يعود اليهم، توطدت العلاقات بين الاثنين إلى حد كبير، مروا بأيام صعبة مع بعضهم البعض، أصبحوا تحت أمرة (مديح) يخرجون مل فترات متباعدة ينفذون من خلالها عمليات سطو على متاجر ذهب ومكاتب صرافة تحت قيادة (حمزة) ثمَّ يعودان، فعلًا ما لم يحبوا فعله من قبل لكن ليس هناك أي بديل لذلك.

حكى لهم (مديح) عن تجارة الآثار وكيف أنه كان يستخدم الأطفال في فتح المقابر، لقد صنع هالة مخيفة حول نفسه من الماورائيات من اجل أخافتهم منه، هو جيد في صناعة تلك الهالة ومحترف في استخدامها.

لم ينتبه (يوسف) للجزء الخرافي من قصته بينما تأثر بفكرة ذبح طفل كقربان لرصد من أجل فتح مقبرة، تذكر مريم التي لم تغب عن باله يوم، تخيلها تذبح على باب مقبرة، أحس أن عليه قتل (مديح) لكنه لا يقوى على ذلك، هو مطارد وقاتل الآن ويبحث عنه أكفأ الضباط وأشرسهم (جلال الجريدلي).

حكى ل(بشر) عن (مريم) وعن احتراق قلبه فطمأنه وقال:

- مريم عايشة يا أصلان، هتشوفها قريب، أنا متأكد.

صدقه (يوسف) فدائمًا ما كان يتحقق كل ما يتلفظ به لسانه، تمنى أن تكون على قيد الحياة وأن يراها مجددًا حتَّى لو لدقائق، للحظات يحتضنها ثمَّ يعود بها إلى حبيبته (نور) ثمَّ يدفن حيا أو يشنق.

مرت الليالي ثقيلة للغاية عليهم وما أثقل أيام الغربة وما أصعب الغربة داخل بلدك وما أهون بلدك إن كنت رخيصًا بها.

***

داخل إحدى محاكم الأسرة تجلس (نور) وبجانبها (سيد الخولي) ووالدها ينتظرون حضور القاضي الذي أعلن عن قدومه الحاجب، دخل رجل خمسيني وقر المظهر، أمسك بملف القضية وقرأ محتواها جيدًا ثمَّ نظر إلى (نور) وقال:

- الله يعينك يا بنتي على ما بلاكِ، أنا هحكملك بالطلاق، أخرجي بره الأسود ده وعيشي حياتك، ربنا يعوضك.

ثمَّ أصدر قرار بتطليق (نور) من (يوسف) بحكم من المحكمة.

خرجت (نور) من المحكمة وهي فاقدة لكل شيء أحبته يومًا، فقدت حبيبها إلى الأبد، فقد ذكرياتهم التي احترقت مع موت (مريم)، أرادت أن تصرخ بكلمه (لا تصدر الحكم بطلاقي) لكنها جعلت الأمور تنساب من بين أناملها.

عادت إلى المنزل، خلعت الأسود، قصت أطراف شعرها، وقفت أسفل المياه الدافئة لتذيب ما تبقى لها من ذكريات مؤلمة، قررت أن تكون إنسانة جديدة، أنهت حمامها الدافئ ثمَّ ارتدت ملابس جديدة وخرجت إلى الشارع وسط تعجب من الجيران عن تبدل حالها، فبعد شهر أو أكثر قليلًا من موت ابنتها تتغير إلى ما هي عليه الآن، كذلك هي الحياة تسلبنا أغلى ما نملك وتمنحنا فرصة أخرى من أجل أن نبني آمال تسلب في المستقبل.

***

داخل مكتب (أكمل) يطرق الباب ويظهر من خلفة (حمزة) يتحرك بخطوات ثابتة في اتجاه المكتب الذي يجلس (أكمل) من خلفه، ينظر له بإعجاب ويقول:

- اقعد يا حمزة.

للمرة الأولى يشعر بأهمية عند سيده، جلس واتسعت بسمته وقال:

- مديح بقالة أكتر من شهر عندي، عايز يخرج ويكمل شغلة، أنا عارف إن ده خطر بس هو لو فضل أكتر من كده عندي هيتعرف مكانه وهنخسر كتير.

أشعل (أكمل) سيجار ويمد يده بواحد إلى (حمزة) فأمسك به ككنز وقال:

- وأنت رأيك إيه يا حمزة؟

اعتدل (حمزة) في جلسته وقال:

- أنا شايف يا باشا إنه فعلًا لازم يتحرك من المكان ده، مينفعش يعرف حاجة عن شغلنا التاني، وجودة خطر في مكان شغل لينا، مديح مش سهل أبدًا.

أخذ (أكمل) نفسًا عميقًا من السيجار ثمَّ أخرج دخانًا كثيفًا وقال:

- خلاص، خليك جاهز لما أقولك حركة تنفذ عالطول.

وقف (حمزة) ووضع السيجار داخل جيب بدلته ثمَّ غادر المكتب وعلى وجه سعادة بالغة، لقد أحس أنه كان بيدقًا صغيراً والآن تقرب من الملك ونال ترقية تليق به.

***

يتحرك (جلال) باتجاه مكتب (هشام) وعلى وجه الجدية المفرطة، يجتاز الجميع وسط تحيات عسكرية، طرق الباب فسمع صوت (هشام) من الداخل يسمح له بالدخول، فتح الباب واتجه إلى (هشام) سلم عليه وجلس على الطرف الآخر من المكتب، طلب فنجان قهوة وأراد أن يتحدث في أمر هام.

بعد أن أنهى الاثنين قهوتهما بدأ (جلال) حديثة قائلًا:

- أنا عارف إنك على تواصل مع أصلان، وعارف إنك عمرك ما كنت جبان إنك تنكر حاجة بتعملها.

لمعت عين (هشام) فهو مقبل على حديث حاد كان يتجنبه من البداية فقال:

- صح، أصلان بريء يا جلال، أنت إزاى مش شايف ده؟

انفعل (جلال) وقال:

- أنا مش شايف غير القانون والأدلة والتحقيقات، أصلان مجرم وقاتل، هربان من العدالة واتسبب في قتل أكتر صديق عزيز عليا، أنت فاهم ده؟ أنا مش عارف أنت بتفكر إزاي يا هشام، أنا لو بلغت القيادات بده دى فيها عزلك.

ارتفع صوت (هشام) وقال:

- أنا مبتهددش يا جلال وأنت عارف دة كويس، إحنا درسنا واتربينا على الحق مش الأدلة والتحقيقات، اتعلمنا نفكر ونحسب كل الأمور وكل الاحتمالات مش مكن بننفذ القانون وبس، من زمان وده سبب خلافنا، أنت عايز تطبق القانون زي ما قال الكتاب وتغمي عينك عن الحقيقة مهما كانت واضحة، أنا كمان بطبق القانون لما يكون هو الحل الوحيد لكن لو أنا شايف الحقيقة يبقى القانون يستني شوية.

وقف (جلال) منفعلًا وقبل أن يتلفظ بكلمة وقف(هشام) وأصبح مواجها له وقال:

- الحقيقة أن أصلان بريء ومظلوم والقدر كان شايله ظروف صعبة أي حد فينا ممكن يتحط فيها وساعتها هندور على حد يصدق أننا نضاف ومش مجرمين، عايز تبلغ القيادات اتفضل روح بلغ واستاذنك بقى عشان عندي شغل كتير.

اتسعت عين (جلال) بعد أن سمع تلك الكلمات من (هشام) وتحرك في اتجاه الباب فتحه ثمَّ ألقى نظرة سريعة إلى (هشام) وقال:

- هتفضل ضعيف طول عمرك يا هشام.

ثمَّ خرج وأغلق الباب خلفة وجلس يحاول استنشاق هواء يملئ به صدرة الذي يعلو ويهبط في سرعة وهو يتعجب من قسوته وطريقة تفكيره.

***

في غرفة ضيقة للغاية ومظلمة تجلس (مريم) وبجانبها (آدم) أرضًا يرتعشون، لقد تم الإمساك بهم وهم يحاولون الهرب، يعلمون أن العقاب سيكون قاسي للغاية من (دلال).

سمعوا صوتها تقترب من بعيد فتشبثوا ببعضهم البعض، فتح الباب وظهر جسدها الممتلئ وبيدها عصا اِنهالت بالضرب عليهم، تلقى (آدم) معظم الضربات عن (مريم) التي ظلت تصرخ وتاندى على والدها في خوف وأسى، لم تكف عن ضربهما حتَّى خارت قواهم وقواها ثمَّ أغلقت الإضاءة والباب وتركتهم في الظلام من جديد ولكن تلك المرة بجروح بالغة.

(19)

"لا تغلق عينيك عندما يتحتم عليك فتحهما، لعلك ترى الجانب الخفي من المعادلة وتميز بين الحقيقة والزيف، لا تجلس أرضًا عندما يتحتم عليك الوقوف صامدًا لعل الفرصة لن تأتيك مرة أخرى للوقوف".

الشعور بالعجز يقتله، يجعله مفرطًا في كل شيء في الغضب والحركة اللا إرادية، في تدخين السجائر وشرب الخمور، لقد تحول إلى كائن ضعيف متهدم الأركان، ترك صديقه النائم (بشر) وتحرك إلى السلالم التي تقود إلى أعلى، يرى (حمزة) بين الحين والآخر يتركهم ويصعد إلى أعلى، صعد (يوسف) السلالم في حذر، الظلام كان يحيط بالمكان لكنه اِعتاد الظلام وأصبح صديق مقرب له، وجد الباب قدرا ووجد المفتاح بالقرب منه صدفه، فتح الباب فظهرت معالم التعجب على وجه، تسائل ما كل تلك الشاشات المعلقة على الحائط، علم أنها تراقب كل مكان، توغل إلى داخل الغرفة ورأى كل شيء، وجد حقيبة سوداء موضوعة أعلى مكتب خشبي، فتحها ليصعق مما بها، صور لأطفال تم خطفهم والاتجار بأعضائهم ومن بينهم ابنته (مريم)، اشتعل جسده أكمل بحث، ملفات تجارة السلاح والمخدرات والآثار، أسماء رجال أعمال مشهورين على الساحة، رأى (حمزة) يقترب من باب المصنع الخارجي على إحدى الشاشات، أغلق الحقيبة ثمَّ خرج من الغرفة وأغلقها كما كانت.

هرول إلى أسفل ونام وسط الرجال النائمون، شعر أن صديقة (بشر) يرتعش من البرد، خلع معطفه الذي كان يرتديه وغطاه به ثمَّ جلس أرضًا يفكر فيما رأه، علم أن (حمزة) ومن يعمل لحسابهم هم من تسببوا في خطف ابنته، يمثلون فساد كبير داخل البلد من دون شعور أحدهم.

***

صوت جرس يتعالى معلنًا عن قدوم أحدهم إلى شقة (عبد المجيد السيد) يتحرك ببطء في اتجاه الباب وهو يشير إلى ابنته (نور) أن ترتدي شيء ما يخفي شعرها، تتحرك بسرعة إلى داخل الغرفة، يفتح الباب ليجد (سيد الخولي) مبتسمًا وهو يحمل باقة من الورد، يسمح له بالدخول والجلوس ثمَّ ينادي على (نور) كي تحضر له مشروب ما.

تحضر (نور) وتنظر إلى (سيد) وتسأله:

- إزيك يا سيد، نورتنا، تشرب إيه؟

تتسمع ابتسامة (سيد) ويقول:

- شربات بقى لو أمكن، اه والورد ده عشانك.

ثمَّ يمسك بباقة الورد ويعطيها إلى (نور) التي تمسكه وتتعجب من فعلته، تتحرك إلى المطبخ تاركه الاثنين يتحدثون.

بعد جلسة طالت لمدة ساعتين رحل (سيد) بعد أن طلب الزواج من (نور) التي رفضت في بادئ الأمر ثمَّ جلست مع والدها تتحدث وهو يقول:

- وماله الخولي يا نو ؟ بيحبك وشاريكِ وفوق ده كله مقتدر.

انفعلت (نور) وقالت:

- إيه اللي أنت بتقوله ده يا بابا، دة كان صاحب يوسف وأقرب واحد ليه، عاوزني إزاي أعيش مع واحد كنت بعتبره أخو جوزي، وإزاي هو يطلب ده دلوقتي؟

يقترب (عبد المجيد) من (نور) ويقول:

- يا ابنتي، أنتِ عدتك قربت تخلص وتبقي حرة نفسك، الراجل عمل الأصول واستنى لحد ما وثت العدة يقرب وجة طلبك بالأصول، سيد جدع، فكري ونصيحتَّي ليكِ يا نور، اتجوزي وعيشي حياتك.

ثمَّ تركها دامعة العينين تفكر ب(يوسف) حبيبها وكم أن هناك أصدقاء بوجهين طيلة الوقت.

***

في ساعات متأخرة من الليل يجلس (حمزة) أمام الشاشات يراجع ما تم تسجيله في غيابه كالعادة، رأى أحدهم يرتدي معطف أسود ولا تظهر ملامحه تمكن من دخول الغرفة وكشف محتوياتها، اشتعلت نارة وعزم على قتل ذلك الشخص قبل أن يفضح أمرهم.

خرج من الغرفة وهبط السلالم في هدوء ليجدهم جميعا نائمون، بحث عن ذلك المعطف ليجد (بشر) مغطى به، اتقد أنه الفاعل، تركهم وصعد إلى غرفته من جديد يفكر في طريقة مبتكرة وقاسية للقتل.

***

أوشك الفجر على إرسال أضواءه في كل مكان، خرج (يوسف) من المصنع وهو ينظر حوله في خوف محاولًا تفادي أماكن الكاميرات التي تنبه لوجودها حتَّى تمكن من الفرار إلى الصحراء، أخرج هاتفه الجوال وأجرى اتصال إلى النقيب (هشام):

- هشام، باشا، أنا عرفت مين اللي خطف مريم وعرفت مين اللي ورى خطف كل العيال دي، الموضوع طلع كبير وفي أسامي رجال أعمال أكتر.

استمع إلى ما يقوله (هشام) ثمَّ رد:

- هحاول أوصل الورق ده ليك بأي طريقة والباقي عليك.

استمع إلى ما يقال إليه ثمَّ قال:

- حاضر هعمل كده واتصل بيك، سلام.

أنهى المكالمة وعاد أدراجه إلى المصنع من دون أن ترصده كاميرا واحدة ومن دون أن يشعر به أحد.

***

الإضاءة خافته بجانبه وهو يجلس خلف مكتبه يرسل بعض الصور لرقم مجهول، أصدر هاتفه اتصال ليجب:

- عاويزن نخلص منهم من غير ما اسمنا يجي في الموضوع.

يستمع إلى ما يقال ثمَّ يرد:

- مش كتير ؟

يستمع وتتغير ملامحة ثمَّ يرد:

- خلاص حاضر، النص قبل والنص بعد ده يناسبك؟ طيب هتبدأ امتى؟

يستمع ثمَّ يغلق المكالمة وينظر إلى الصور التي أمامه (مرفت، نرمين، هند).

يصب من زجاجة الويسكي داخل كأس ممسك بخ ثمَّ يتجرع مرة واحدة ويبحث عن رقم داخل هاتفه يخص (مروان ووجيه) ثمَّ يتصل بهم في مكالمة جماعية يشرح لهم الوضع الجديد.

***

صوت طلقة نارية تفزع كل النائمين، أطلقها (حمزة) وهو جالس على كرسي حديدي في منتصف المصنع، أفاق (يوسف) من نومه على ذلك الصوت ونظر في اتجاه (حمزة) ليجد منظر يشطر قلبه إلى نصفين، صديقة (بشر) معلق من رقبته بجنزير حديدي وقد فارقت روحه جسده بعد أن مات شنقًا بتلك الطريقة، يحاول (يوسف) الهجوم على (حزة) ليمسك به (مديح) وينظر إليه نظرة ذات معنى.

يقف (حمزة) ويتحرك ليقف أسفل الجسد المعلق ل(بشر) ويقول:

- ده درس ليكم كلكم، أنا قتلته عشان إتدخل في اللى ملوش فيه، شاف حاجات متخصوش وعرف حاجات مكنش لازم يعرفها، ده عبرة لأي واحد فيكم أنه ينخرب ورايا، المصنع كله مراقب بالكاميرات والباشا داخل لابسلي بالطو عشان وشه ميبنش بس طلع غبي وعرفته من لبسه، يلا الله يرحمه.

ثمَّ تركهم وصعد إلى أعلى، هرول (يوسف) في اتجاه جسد (بشر) المعلق وأمسك بالجنزير الحديدي وهبط بجسده ببطء وترو، حمله إلى يده بمساعدة باقى الرجال ثمَّ قام بدفنه في الصحراء وهو يبكي على ما أصابة بسببه، تذكر كلماته وطيبة قلبه، أقسم أنه سيأخذ حقه مهما كلفه الأمر، لقد أصبح له ثأرين عند (حمزة).

(20)

"أصل النار التأجج وأصل الفخار السكون، النور يمحى الظلام والليل يهزم النهار في كل يوم، معركة أبدية بين النقيضين في كل شيء، جولات دائمة الوجود ما دامت الشمس تشرق من مكانها المعتاد".

داخل ورشة الخراطة الخاصة ب(عبد المجيد) يقجلس (سيد) وعلى وجه الغضب ممسكًا بيده بعد إيثلات أمانة يضغط بها على الرجل كبير السن من أجل الزاوج من ابنته، احتسى الشاي الموضوع أمامه ثمَّ قال:

- طول بالك يا سيد، نور هتتجوزك بس اصبر شوية وبعدين يا ابني إحنا مش خلاص كنا اتكلمنا في موضوع إيثالات الأمانة ده؟ كل شوية عمال تهددني بيها، مش عيب عليك، ده أنا بقيت حماك.

ينفعل (سيد) ويقول:

- أنا مش فاهم ليه التأخير يا عم عبد المجيد، هو يوسف ده كان أحسن مني في إيه، أنا رجال جيبي مليان ولا أنا بقى قتال قتله ولا عبيط العيال بتتخطف مني في الشوارع.

احتد وجه (عبد المجيد) وقال:

- خلاص بقى مش هنقلب في الماضي يا ابني، اصبر واستهدى بالله.

وقف (سيد) ووضع الاصالات في جيبة وقال:

- لما نشوف، أنا هعمل بأصلي واستنى بس مش هستنى كتير يا عم عبد المجيد.

***

سيارة شرطة تقترب وتقف بالقرب من إشارة مرور مزدحمة ثمَّ يهبط منها أمين شركة ويهرول في اتجاه سيدة تجلس أعلى الرصيف وبيدها كيس ممتلئ بالمناديل الورقية ما أن رأت أمين الشرطة قادمًا حتَّى هرولت وتركت (آدم) و(مريم) بعد لاحظًا ما حدث وهربًا في اتجاه شارع بعيد عن سيارة الشرطة وتلك السيدة التابعة ل(دلال).

أمسك (آدم) بيد (مريم) وتوجها داخل شارع ضيق وجلسا مختبئين، رغم أن الخوف كان يملئ صدورهم إلا أنهم كانا سعداء للغاية بعد أن سمحت لهم الظروف من الهروب من قبضة (دلال).

***

غادر (حمزة) المصنع فوق دراجته النارية كعادته في كل يوم، تمكن (يوسف) من التسلل خلسة إلى الدور العلوي وفتح باب حجرته بنفس الطريقة، تلك المرة استطاع أن يصور كل شيء، ملفات وأرقام حسابات بنكية وصور الأطفال وأسمائهم، كل شيء تقريبا حتَّى لفت نظرة رقم يعود إلى زوجة أحد رجال الأعمال (أكمل) وقد كتب أنها هدف للقتل بعد أن علمت بمار فساد زوجها لكنها لا تمتلك دليل، سجل الرقم ثمَّ أعدا كل شيء إلى مكانه بعد أن أخذ نسخة منهم جميعًا.

هبط من الدور العلوي وحضر حقيبته للمغادرة ثمَّ بهدوء وخفه خرج من المصنع وهو يحاول الاتصال ب(مرفت) انتظر الإجابة ثمَّ قال:

- مرفت هانم؟

استمع إلى إجابتها ثمَّ قال:

- أنا معايا ورق كنتي بتدوري عليه من فترة كبيرة، ورقم يلف حبل المشنقة حوالين رجال أعمال كتير ومن ضمنهم للأسف أكمل جوز حضرتك، أقدر أقابلك فين وامتى؟

اسمتع إلى ما يقال ثمَّ أنهى المكاملة وتحرك قاطعًا طريقة من بين الصحراء إلى أحد الطرق السريعة.

***

اشتاقت الهيم إلى حد الألم، اشتاقت إلى سماع أصواتهم، إلى ردات فعلهم وقت الفرح والحزن، اشتاقت أن تحتضنهم من جديد، دموعها تساقطت لتغرق صورهم مجتمعين، تذكرت ضحكتها التي تشبه ضحكة أباها، حبيبها (يوسف)، الحزن يملئ كل جنبات روحها ونفسها أوشكت على الانطفاء، يبدوعليها التماسك لكنها محطمة تمامًا أكثر من أي وقت مضى، الجميع يحثها على مواصلة حياتها بشكل طبيعي وأني لها ذلك، أفمن سلب بصرة يرى أو من سلب قلبه يشعر من بعد ذلك، (مريم) نطقت بأسمها عدة مرات متتالية، هناك جزء صغير مختبئ داخل قلبها يخبرها أنها ما زالت هناك في مكان ما أوان عقلها شت من فرط التفكير والحنين، كيف لها أن تتزوج وكيف لها أن تفرح وكيف لها أن هتنأ وتبني أسرة من جديد، أنها كالأموات لكنها ما زالت على قيد الحياة تاكل وتشرب وتنام ولكن روحها غادرت منذ وقت طويل، الحياة قاسية والناس أشد قسوة والقدر يبارك قسوتهم.

***

سيارة حديثة الطراز تتحرك في أحد الشوارع العمومية وسط الأمطار التي تسكب كسيول غزيرة، الطقس شديد البرودة، أصبحت الأضواء حمراء وتوقفت السيارة ومن خلف مقودها كانت تجلس فتاة في منتصف العقد الثالث من عمرها، جميلة الوجه قمحي اللون، متوسطة الطول بشعر قصير أسود، نظرت من خلف شباك سيارتها لترى طفلين نائمين أسفل شجرة ملتحمين الجسد، يرتعشون، أصابها الهلع، هبطت من سيارتها ثمَّ حملت أحدهم وضعته داخل السيارة وعادت لتحمل الآخر، تذكرت كيف تغير حالها بعد أن علمت أنها لا تنجب وخسرك زواجها

ومعظم حياتها، أحست أن الله يعوضها الآن باثنين بدلًا من واحدًا كانت تتمنى وجودة في دنيتها.

الإشارة أصبحت خضراء، انطلقت بسيارتها إلى المنزل، أوقفت سيارتها داخل جراج المنزل وهبطت، حملتهم الاثنين وصعدت بهم عبر المصعد إلى منزلها، أدخلتهم حجرتها وغطتهم جيدًا بعد أن خلعت ملابسهم متشربة الماء وألبستهم غيرها وجلست بجانبهم تنظر لهم بكل حنان وحب، أنهم أرسلوا لها أو هي من أرسلت لهم.

(21)

"أوشكنا على نهاية قصتنا وأوشك القدر على أن يعطي كلًّا ما يستحق، نهاية الرحلة هي بداية لرحلة جديدة، الأمور أكثر تشابكًا وتعقيدًا مِمَّا تبدو عليه دائما".

مياه النيل الجارية تكمل سريانها أمام العيون الحالمة، الكورنيش دائمًا مزدحم بالعاشقين والمهمومين والحالمون، الباعة الباحثون عن لقمة العيش الصلبة التي تكسر أسنانهم، (مرفت) تجلس أعلى أحد الكراسي الخشبية وحيدة تنظر إلى ذلك المنظر الخلاب للنيل، تحبس دموع بدالخها تضاهي كمية الماء بداخله.

اقترب (يوسف) من المكان التي تجلس به (ميرفت) ومد يده بأوراق موضوعة داخل ملف أحمر، نظر له وأمسكت بالملف وقالت:

- أصلان مش كده؟

أومأ (يوسف) إيجابًا وقال:

- صح يا مرفت هانم، مكنتش أتمنى الورق ده يوصلك وتتعرضي للخطر بسببه بس حضرتك أصريتي على ده.

أشارت له أن يجلس ففعل، قالت بتأثر:

- أكمل كان شاب مجتهد جدًا عشان كده بابا وافق يجوزني منه، بعد وقت قليل لمع نجمة وبقى من أهم رجال الأعمال رغم أن سنة كان صغير، بعد مدة بدا يتغير ولأني أعرفه أكتر من أي حد عرفت إنه بدأ تجارة في الممنوعات، عشان بحبه كلمته لكنه أنكر أكتر من مرة، أنا كمان بحبه بس هو أذى ناس كتير أوي ومنهم أنت وبنتك، عشان كده حبيت إني أكون أنا نهايته زي ما كنت أنا وفلوس أبويا بدايته.

تأثر (يوسف) بكلمات تلك السيدة الحزينة وقال:

- الشيطان يا مرفت هانم لما بيتمكن من حد بيلغي أوبشن الحب ده من حساباته ومن قلبه، خلي بالك من نفسك لأنه لو اكتشف هيقتلك بنفسه.

أنهى كلماته وسلم عليها للمرة الأولى والأخيرة ثمَّ تركها وظل يمشي بمحازاة النيل يشكوله ما حدث ويأمل أن يخبرة عن ابنته، (مريم) نطقها قلبه وتبعه لسانه.

***

تاكسى يقودة (سيد الخولي) يقترب من قهوة في أحد المناطق الشعبية، يقف بمحازاة القهوة ويهبط منها وعلى وجه علامات الغضب، يقترب من أحد ما يجلس في انتظاره وهو مبتسم له، جلس (سيد) بجانبه وأعطى له كيس أسود اللون وقال:

- دي أخر فلوس هتاخدها مني يا عادل، كده يبقى وصلك أكتر من اللي اتفقنا عليه، مكنش مخزن حرقته يا أخي وكل شوية تطلب فلوس على حسه.

نظر (عادل) بحدة إلى (سيد) وقال:

- ما هو لما يكون مخزن أصلان يبقى يسوي كتير ولما يبقى اللي حصل فضالك الجو وسهلك مأمورية الجواز من نور اللي هي كنت مرات أصلان يبقى أنا لازم أفضل ساكت وأنا سكوتي ببلاش يا سيد.

كاد أن ينفعل (سيد) لكنه كظم غيظة وقال:

- ماشي يا عادل، فلوسك ووصلتك وذيادة، يبقى حل عن سماية بقى يا أخي.

ثمَّ تركه واتجه إلى التاكسي فتح الباب وأدر المحرك ثمَّ انطلق مبتعدًا عن القهوة.

***

رقم مجهول يبعث برسالة إلى (أكمل) يفتح الرسالة ليجد عدة تصور لزوجته (مرفت) وهي تتسلم أوراق من شخص ما لا يعرفه، ومكتوب داخل الرسالة (دي أوراق نهايتك، أنا جاهز لو أنتوا جاهزين) انفعل (أكمل) وألقى بالكأس الذي كان يحمله ليقع أرضًا ويتحطم، يقف منفعلًا كثر هائج يطيح بكل شيء أمامه فوق المكتب، يدخل المكتب الكثير من الحرس الخاص به فينهرهم ليغادروا، يهدئ من روعة، يفكر بها يقول (ليه يا مرفت؟ ليه؟).

***

السعادة تظهر جلية على وجه الطفلين (آدم) و(مريم) وهم يلعبون مع (لبنى) التي تبدو أكثر سعادتة منهم، يخرجون ولأول مرة معها من دون خوف، الاثنين لا يعلم طريق أهلهم فقررت (لبنى) تبنيهم.

عادوا بعد يوم طويل من المرح إلى المنزل، جعلتهم يجلسون بجانبها طيلة الليل تحكي لهم ويحوا لها عن ماضيهم ثمَّ قررت أن تحول أحزانهم أفراح وأن تعوضهم عمَّا أصابهم طيلة الفترة السابقة.

(22)

"خطوات قليلة تفصل بين الظلام والنور، تفصل بين الحقيقة والزيف، تفصل بين كل ما هو جيد وما هو سيئ، أنا وأنت والجميع نخطو تلك الخطوات حتَّى نستقر على إحدى الجانبين".

داخل شارع رئيسي يهرول (يوسف) يفادي المارة في محاولة للهروب من الرائد (جلال الجريدلي) الذي وبدون مقدمات عثر عليه وظل يطاردة لفترة تعدت النصف ساعة، حاول (يوسف) تخطي الشارع وأكد أن يصدم من السيارات التي تتحرك بسرعة لكنه نجى من الموت في آخر لحظة، تبعة (جلال) وكادت أن تصدمة سيارة هوالآخر، بالقرب من شارع شديد الانحراف دخل (يوسف) إلى عقار وجده أمامه كسبيل للنجاة وتضليل (جلال).

وجد حارس العقار في وجه، حاول الهروب لكن الحارس أمسك به ودفعه إلى داخل حجرة أسفل السلم وأغلق عليه الباب من الخارج بقفل قديم، دخل (جلال) العقار واقترب من الحارس وسأله:

- مشفتش حد دخل هنا قبلي كان بيجري؟

رد الحارس قائلًا:

- لا يا باشا والله، أنت أول واحد يدخل.

أرسل (جلال) عينه في كل مكان واقترب من حجرة الحارس ونظر بداخلها ثمَّ إلى الباب المغلق بقفل صدئ وضع يده عليه فوجده قديم بالفعل، غادر المكان وعلى وجه غضب عارم.

***

داخل منزل (عبد المجيد) تجلس (نور) وبجوارها (ملك) يحتسون القهوة كعادتهم وفجأة ومن دون مقدمات قالت (ملك):

- متتجوزيش تاني يا نور، متوافقيش على سيد أخويا.

تعجبت (نور) من حديثها وقالت:

- المفروض أسمع منك غير كدة يا ملك، سيد ده أخوكى ليه بتقولي عليه كده؟

وضعت (ملك) الفنجان على منضدة قريبة وقالت:

- سيد قلبه أسود يا نور، مبيحبكيش، طول عمرة بيحاول يثبت للناس ولنفسه إنه أحسن من يوسف، حرام عليكِ نفسك وحرام عليكِ يوسف.

ظهرت ملامح الغضب على وجه (نور) وقالت:

- وأنتِ مالك زعلانة أوي كده على يوسف؟ بتتكلمي عنه كأنك تعرفيه أكتر مني مثلًا؟ هو في إيه يا ملك.

ارتفع صوت (ملك) وقالت:

- فيه إنك إنسانة أنانية، ربنا إدالك كتير أوي وأنتِ متستحقيش، عشان كده ربنا أخد منك كل اللي إدهاولك، أنت عمرك ما كنتي تستحقي يوسف ولا حتَّى ضفرة، ولا كنتي تستحقي مريم، أنا كنت أولى بده كله منك، بس هو اختارك أنتِ وكانت النتيجة إن مريم ماتت وأمه ماتت وهو في السجن بسببك، بسبب قسوة قلبك وأنانيتك ودلوقتي أنتِ عايزة تنسي ده كله كأنه محصلش، كأنك كنتي الضحية، أنا بجد قرفانة منك، أقولك اتجوزي سيد، أنتوا أصلًا شبه بعض.

أنهتى كلماتها ثمَّ تحركت في اتجاه باب الخروج واصتدمت بفنجان القهوة فوقع أرضًا محدثًا فوضه لم تكترث لها، فتحت الباب وغادرت.

***

أحد المولات التجارية في منطقة القاهرة الجديدة يتحرك (رشاد) وبرفقته (نجلاء) يدخلون إلى المحلات ويتسوقون كرجل وامرأته وتتعالى ضحكاتهم ومزاحهم، وبالقرب منهم يتحرك النقيب (هشام) يراقبهم عن كثب ويوثق كل ما يراه عن طريق كاميرا هاتفة الجوال، يتعجب من ذلك المحامي الفاسد الذي يتلاعب بالجميع ويضع السم في أكل وشرب كل واحدا منهم، يعمل لحساب أحدهم ثمَّ يرافق زوجته وفي نفس الوقت يعمل لخصمه، أنه حقًا شيطان متوارى في هيئة رجل قانون لكنه يظل مفتاح كل شيء، مفتاح باب خفي يصعب إيجاده، باب يتوارى خلفة عالم موازي لعالمنا المسالم قليل النظر، وإذا أدرت فتح أي باب فعليك أولًا البحث عن المفتاح الصحيح.

***

داخل مدينة الإنتاج الإعلامي تتجهز المذيعة (نرمين) للدخول إلى الإستوديو لبدء حلقة جديدة من برنامجها الأسبوعي والذي نال إعجاب الكثير وأثر في المجتمع والحكومة معًا، ارتدت سماعة الأذن ووضع المياك وقبل أن تخرج من غرفتها أصدر هاتفها اهتزاز، نظرت على شاشته لتجد أن المتصل ميرفت أمسكت بالهاتف ثمَّ أجابت:

- ميرفت عاملة إيه؟

تسمع ما تقوله بحرص، تتغير ملامحها ثمَّ ترد:

- أنتِ معاكِ الورق ده؟

تستمع بحرص ثمَّ تقول:

- طيب ما تقولي الأسماء دلوقتي ويبقى سبق صحفي.

تنظر إلى ساعتها ثمَّ تنصت إليها من جديد تجيبها بعجالة:

- خلاص تمام، هحدد لك حلقة تطلعي فيها معايا ونفضح الكل مع السلامة عشان ميعاد الحلقة.

تغلق الهاتف ثمَّ تضعة في أحد أدراج المكتب وتغادر حجرتها متجهة إلى الاستوديو.

***

الطفلان يغطان في نوم عميق وهي تنظر إليهم من فرق بسيط للباب، تبدلت الأمور للأفضل لهم ولها، فتحت الباب في هدوء ثمَّ اتجهت إليهم، عدلت من وضعية الغطاء وأما أنت عليهم، أحضرت مشروب دافئ وجلست على كرسى بجانب الفراش وظلت تنظر إليهم كأنها تخاف أن تفقد لحظات بوجودهم بجانبها وأن تلك البهجة التي تشعر بها ستزول في يوم ما.

(23)

"أصبح اللعب الآَن على المكشوف، كما يقال السحر دائمًا في مصلحة الساحر حتَّى إذا أخطئ انقلب السحر عليه وأن دوام الحال ما هو إلا لوقت معلوم ثمَّ يتبدل".

ممسكًا بصروتها، ينظر لها في اشتياق وهو يتحدث إلى حارس العقار ويروي له كل ما مر به خلال الشهور الماضية، وجد تعاطف كبير منه، صدقة من دون أن يطلب منه دليل ثمَّ قال:

- أنا مصدقك يا أصلان يا ابني، اللي أنت حكيته ده أنا مريت بيه من 20 سنة، بس بشكل مختلف، أنا اللي قتلت بنتي ومراتي بعد لما اكتشفت خيانتها ليا وإني مبخلفش، وبقيت هربان من ساعتها هنا وبقت حياتي كلها ذكريات أنا نفسي مش عايز افتكرها، الدنيا دايمًا يا أصلان هتدور إزاي تضايقك وتبعدك عن الطريق الصح، أوعي تطاوعها.

ابتسم (يوسف) وقبل صورة (مريم) وقبل أن يدخل الصورة إلى جيبه أمسك بها الحارس وقال:

- هي دي مريم يا أصلان؟

ترك (يوسف) الصورة إلى الحارس وقال:

- أيوه هي.

قبلها الحارس وقال:

- ربك بيحبك يا أصلان، أنت ابن حلال، بنتك لسه عايشة، مبسوطة ومتهنية وقريبة كمان من هنا.

لمعت عين (يوسف) وقال:

- فين ؟ قولي، مريم فين؟

ابتسم الحارس وقال:

- هنا في العمارة، من فترة الست لبنى اللي ساكنة هنا في العمارة لقت والد وبنت نايمين في الشارع وكتر خيرها جابتهم وعيشتهم معاها، مريم هي البنت دي يا أصلان.

وقف (يوسف) كم لدغ من ثعبان وقال:

- طلعني ليها أبوس إيدك، هشوف مريم تاني!! وديني ليها.

***

طرق على باب غرفة (نور) التي تجلس أمام المرأة تبكي حالها، تبكي نصيبها، تشعر أنها لا تستحق إلا ذلك النصيب كما قالت (ملك)، انتبهت بعد عدة طرقات وقالت:

- أدخل.

فتح الباب وظهر من خلفة والدها (عبد المجيد) لاحظ دموعها فاقترب منها واحتضنها ثمَّ قال:

- متعيطيش يا بنتي، لومش عايزة تتجوزيه خلاص، أنا هتصرف معاه.

انهمرت دموعها أكثر ثمَّ قالت وهي تنظر إلى والدها باكية:

- هتجوزة يا بابا، خلاص أنا قررت، أنا أصلًا مستهلش غير واحد زيه، الحلو كان في إيدي وأنا ضيعته.

***

أمام مكتب الرائد (جلال) الجريدلي يقف (سيد الخولي) في انتظار السماح له بالدخول ومقابلته، دقائق مرت عليه ثمَّ فتح الباب من عسكري الخدمة ثمَّ سمح له بالدخول.

خطى (سيد) خطوات حذرة إلى الداخل فوجد الرائد (جلال) ينظر إليه في جدية، وقف أمامه صامتًا فقال (جلال):

- ما تنطق يا ابني عايزني في إيه؟

انتفض (سيد) خوفًا من صوته المرتفع وقال متلعثمًا:

- أصلان يا باشا أصلان.

انتبه (جلال) إلى كلامه ثمَّ قال:

- أنت تعرف مكانه يلا؟

عاد (سيد) إلى الخلف ثمَّ قال:

- لا يا باشا والله ما أعرف مكانه، بس هو اتصل بيا وهددني لما عرف إني اتقدمت لطليقته، ده قتال قتله يا باشا وأنا مش قده.

اعتدل (جلال) وقال:

- والمطلوب.

ابتسم (سيد) وقال بخبثٍ:

- تحمونى يا باشا، أنا متأكد إنه هيجي الفرح لما يعرف ساعتها حضرتك تقبض عليه وأنا ليلتي تعدي على خير.

أومأ (جلال) برأسه وقال:

- ماشي، بس لو مجاش الفرح هحبسك مكانه، يلا اِتكل على الله.

ابتلع (سيد) ريقة ووضع يده أعلى رأسه محيا (جلال) وغادر المكتب مسرعًا.

***

يوم مرهق آخر انتهى بسلام أو بأقل الخسائر كما يقال، فتح باب شقته ودخل إلى ظلامها، فتح الإضاءة، خلع سترته وألقاها على أول كرسي قابلة ثمَّ خلع حذائه، لمح خيال ما مر في انعكاس المرأة، تهيأ إلى محاولة غدر قادمة، هجم عليه أحدهم يرتدي السواد وهو ممسك بسكين، أصابه بجرح في يده، تبادلوا الضربات وتمكن (هشام) من خطف السكين من يد المعتدي، حاول ذلك الشخص الهرب لكن أنقض عليه (هشام) وطعنه في ظهره، حاول ذلك الشخص جاهدًا أن يغادر لكن الطعنه أصابت جزء حيوي من جسده وأخذ يتألم بشدة حتَّى فارق الحياة، أزاح (هشام) الغطاء الأسود من على وجه فوجده شاب صغير السن، لم يعلم عنه أي شيء من قبل،علم أنه أصبح هدفًا لأحدهم.

(24)

"خطوة أخيرة ما زال عليك تنفيذها، تحرك باتجاه ذلك الستار الأسود ثمَّ انزعه من مكانه وتقبل ما ستقع عينيك عليه، قد لا ترى شيء جميل وقد لا ترى شيء مفهوم لكن تأكد أنك سترى الحقيقة".

ساعات الصباح الأولى، أمل جديد يعود له مع كل خطوة يقطعها في طريق الباب، الباب الذي يفصل بينه وبين (مريم)، الباب الذي يفصله عن ترياق لسم أصاب قلبه وسائر بدنه، وقف أمام الباب، عدل من هندامه وهو ممسك بوردة صغيرة، ضغط على الجرس وانتظر أن يفتح له.

فتح الباب فظهرت (لبنى) من خلفة تنظر له بتعجب، لم تزول ابتسامته مع على وجه فقالت له:

- حضرتك مين؟ أقدر أساعدك؟

كان التوتر ظاهر على ملامحه وجسده للغاية، أصدر سعال ثمَّ قال:

- مريم، أنا يوسف أصلان أبو مريم، هي فين؟

سمع صت خطوات يعرفها جيدًا تقترب بسرعة في اتجاهه ثمَّ توقفت خلف (لبنى) تحركت جانبًا لتظهر أمامه تشع ضوءًا أو هكذا رآها، جلس أرضًا على ركبيتيه ومد يده بالوردة وهو دامع العينين، أمسكتها وبكت وتقدم خطوات هي تنظر داخل عينه وقالت:

- بابا، أنت كنت فين؟ ليه سبتهم يخدوني منك؟

ثمَّ ارتمت في حضنه، احتضنها بقوة وجعل قلبه يشعر بقرب قلبها الصغير، تداوت كل جراحة في لحظات، برأ من كل العلل ونسى كل ما مر به، خمدت نيرانه ونبت النور في قلبه من جديد.

***

ممسكًا بهاتفه الجوال وبصوت مرتفع يقول موجها كلماته القاسية بصيغة التهديد إلى (عبد المجيد) قائلًا:

- الفرح الخميس الجاي يا حج عبد المجيد، هو ده الحل الوحيد.

يستمع إلى ما يقال إليه، ينفعل بشدة ويقول:

- الخميس يعني الخميس، الخميس لو مكتبتش الكتاب ونور باتت في بيتي هتبات أنت في السجن وعليا وعلى أعدائي، لكن هتقعد تقولي أسبوع، طب شهر، يومين، هو في إيه، أنا مش عايز السنيورة خلاص هات فلوسي يا عم.

استمع إلى ما يقال ثمَّ هدأت ملامحة وقال:

- كدة بقى أنت حبيبي، أنا هفوت عليك النهارده ومعايا هدية للعروسة عشان ننول الرضا، مع السلامة يا عمي.

***

منظر المقابر من الأعلى يقودك إلى الجنون والزهد، هناك يرقد كل من تحدث كل من ظلم وكل من أصابه سهم الظلم، هناك يرقد من كانوا عليه القوم ومن كانوا يبحثون عن قوت يومهم في القمامة، هناك ألحق وخارج أسوارها الباطل، قدماه تتسارع إلى قبر أمه، اشتاق إليها، يشتم رائحتها كلما اقترب أكثر ويدق قلبه بألم فقدانها.

وصل (يوسف) أمام قبر أمه وأخرت قواه، لم تحمله قدماه وتركته يسقط، اختلط التراب بدموع عينيه التي سقطت سيولًا، أخذ يدعوا لها من دون هدى، يشكي لها، يحدثها عن ألمه، عن اشتياقه عن رجوع مريم، تمنى أن تجيبه حتَّى لو بكملة واحدة، تمنى أن يحفر الأرض ويبحث عن عظامها ويقبلها ثمَّ يرقد بجانبها حتَّى يلحق بها، لكن هناك أمر ما زال عالق عليه التحقق من إنهاءه، ثأر وجب أخذه، رأس أن أوان قطفها.

قال هو ما زال يبكي:

- سامحيني يا أمي، مكنتش معاكِ في آخر أيامك، مكنتش هنا وقت دفنك، أنا تعبان أوي يا أمي، ادعيلي، ادعي ربنا يشيل من عليا زي ما كنتي بتعملى طول عمرك، قريب هكون معاكِ.

ثمَّ وقف وقرأ الفاتحة لها وترك قبر أمه وغادر مسرعًا في طريقه إلى قدرة المكتوب.

***

هبط (شبل) على أحد الطرق السريعة، توغل داخل الصحراء في طريقة إلى المصنع المهجور الذي يقبع حزينًا وسط منطقة صفراء قاحله، الليل أسدل ستائره، اقترب للغاية من مكان المصنع ثمَّ جلس أرضًا، ارتدى معطف ثقيل يقيه برد الصحراء القارس، أمسك سلاحه الناري ووضعه بجانبه، أخرج صورة تجمعه هو وزوجته وابنيه، دمعت عيناه واشتاق أن يجتمعوا من جديد، لكن ليس اليوم فاليوم سيقوم بإرسال شيطان إلى قبره.

(25)

"الشيطان قادر على تشويه الحقيقة لوقت وجيز ثمَّ يتركك تقابلها وحيدًا مزهولًا، تبحث عنه في كل مكان كى يقف مانعًا إياها عنك لكنه يتوارى خلف حاجزه المنيع ينظر إليك بتشفي وأنت تلقي مصيرك المظلم دون تدخل، هكذا تنتهي الأمور دائما".

خطواته ثقيلة للغاية لكنه لا يشعر إنها تقوده إلى نهايته المحتمة، ينتهي من تدخين سيجارة لم ينهيها للآخر، يلقيها بعيدًا وهو ينظر إليها مودعًا، يصل أمام باب المصنع وهو يتحدث إلى نفسه بكلام غير مفهوم، يفتح القفل الكبير ثمَّ يحرك الباب لمسافة صغيرة تتيح له العبور إلى الداخل، يتحرك خطوات ليصبح داخل المصنع، يضع يده على الباب محاولًا إغلاقه فيتلقي لكمة في الوجه تطيح به إلى الداخل وتوقعه أرضًا.

يقف ببطء من أثر الخمور يتلفت حوله ويصيح.

- مين؟ أنت فين؟

يلتفت حول نفسه في فزعٍ ولا يجد أحد، يتلقي ضربة أخرى على ظهرة بشيء معدني فيصدر صيحة متألمًا ويجلس أرضًا وهويصيح:

- خليك راجل وواجهني.

الظلام يعبث به متواطئًا مع الخمور التي بدأ مفعولها ينتهي، يرى أحدهم يظهر ويختفي بغتة داخل ظلال المصنع، يصرخ به أن يظهر ويواجهه، يتلقى المظيد من الضربات تدمى للها وجه ورأسه الحليق، يخرج سلاحة الناري ويطلق عدة أعيرة نارية في الفراغ من دون فائدة، يظهر أحدهم من الظلام ويضرب اليد الممسكه بالسلاح فيتسبب في ضرر كبير بها ويسقط السلاح أرضًا، يتألم (حمزة) بشدة ويحاول الوصول إلى السلاح ليجد (يوسف) يقف في طريقه، يبتسم ويحاول تذكر وجهه، يقف محاولًا الاتزان ثمَّ يقول:

- أنت، أنت، أصلان صح، أنا فاكرك شوفت هنا وشوفتك في التلفزيون، جاى تاخد حقك مني عشان بنتك، اسمها، اِسمها مريم صح؟

تتجمع كل معالم الغضب والغل على ملامح (يوسف) الذي يقف كتمثال نحت من أجل البقاء هكذا لقرون، يكمل (حمزة):

- جاي تاخد حقها من حمزة الميت!!! ده أنت قلبك جامد أوي يا أخي، كنت المفروض تقول الله يرحمها وتنسى، بس أقول إيه غبي، غبي عشان هتحصلها.

لم يعطه (يوسف) المزيد من الوقت كي يكمل حديثه المستفز وسدد له لكمه أدمت شفتيه، اِبتسم (حمزة) وعاد إلى الوقوف من جديد وأشار له أن يحاول مرة أخرى ففعل وسدد له لكمة أخرى تلقاها بضحكة مرتفعة وأشار له من جديد، اِنفعل (يوسف) وحاول الهجوم على (حمزة) والقضاء عليه فأمسك به (حمزة) وأطاح به في الهواء ليوقعه أرضًا بشكل مؤلم.

وقف (يوسف) مسرعًا وقد ظهر على وجه علامات القلق من قدرة (حمزة) على الدفاع عن نفسه، فهو يعلم إنه متمرس، تعارك الاثنين لدقائق متتالية اِستطاع فيها (حمزة) أن يبرح (يوسف) ضربًا ويجعله طريح الأرض في حالة منهكة.

تحرك (حمزة) حول (يوسف) الملقى أرضًا وهويصيح قائلًا:

- غبي، أنت غبي يا أصلان، جاي تموت واحد هو أصلًا ميت من زمان، أنت عارف، أنا عمري ما كان عندى حاجة أخسرها عشان كدة معنديش نقطة ضعف ذيكم كلكم، معنديش ذكريات جميلة أرجع أفكر فيها فأفرح ولا عندي مستقبل وأحلام عايز أحققها فأخاف، ولا أنا عايش كويس دلوقتي فلازم أحافظ على اللي أنا فيه، أنا ميت من زمان وهفضل ميت، ولما ملك الموت يجيلي هقوله شوفلي شغل عندك، أنا عندي سي في يشرف وواخد كورسات في القتل، أنا كل يوم بستنى الموت

يجيلي بس واضح إني مش على قايمة اِهتمام حد، لا اللي عايشين ولا الميتين، تفتكر واحد زي هيخاف من الموت، أهلًا بالموت.

أنهى كلماته وأخرج (مطواه) صغيرة من أحد جيوبه واتجه ببطء إلى (يوسف) أمسك بشعرة ووضع السلاح على رقبه وهو مبتسم كشيطان طليق لا رادع له وقبل أن يذبحه التف جنزير حديدي حول رقبته جعله يسقط (المطواه) من يده ويترك (يوسف) ويحاول تحرير رقبته من الجنزير الحديدي، يسحب أحدًا ما طرف الجنزير فترتفع قدم (حمزة) عن الأرض وهو يتألم بشده ويحاول جاهدًا التنفس.

يعتدل (يوسف) وينظر إلى القادم من الظلام لتظهر ملامح (شبل) جلية أمام الاثنين، يمد يده إلى (يوسف) محاولًا مساعدته على الوقوف ثمَّ يتحرك في اِتجاه (حمزة) وينظر إلى داخل عينه من دون أن يتحدث، يتحرك باتجاه قطعة حديد ملقاة أرضًا ثمَّ يعود ويقف أمام (حمزة) الذي يحاول فك نفسه تارة وتارة أخرى يشير إلى (شبل) ألَّا يفعل ما ينوي على فعله.

أمسك (شبل) بالقطعة الحديدية بقوة وسدد ضربة موجه إلى ضلوع (حمزة) ليسمع تهشمها (يوسف) ويعلم أنه ليس الوحيد الذي يدين له (الميت) بثأر، الضربة الأولى جعلت الدماء تخرج من فمه وتبدأ عيناه في الاحمرار، صوت أنفاسه ضيق للغاية كمن ينازع الموت، أحكم قبضته على القطعة الحديدية مرة أخرى وقال:

- أول ضربة عشان كريم اِبني.

سدد له ضربة أخرى على الجانب الآخر من ضلوعه فتهشمت وأصبح جسده كخرقة باليه، اِقترب من وجهه وقال:

- تاني ضربة عشان آدم اِبني.

تحرك ليقف خلفه ثمَّ بكل قوته سدد ضربة أسفل عموده الفقري جعلت

قدامه ترتعشان كم يعاني من شلل أو كسر بالعمود الفقري، عاد ليقف أمامه من جديد فوجدة بقطر دما مختلط بدموع من عينه التي أصبحت ككاسات دماء، خارت قواه وأصبح كامل جسده يرتعش، أمسك برأسه وقال:

- الضربة التالتة دي كانت عشان مراتي (دعاء) فاكرها؟ أنت كسرت ضهري بموتها وتعذيبها وكان لازم أكسر ضهرك.

تحرك (شبل) في اِتجاه المكان المتحكم بأضاءة المصنع، لحظات واضيء المصنع بالكامل، بوجه أوشك على الانفجار وجسد محطم يَدمي من كل مكان حاول (حمزة) أن يتحدث لكنه فشل، تحرك (يوسف) إلى طرف الجنزير الحديدي الآخر وأخذ يسحبه لترتفع قدم (حمزة) عن الأرض رويدًا رويدًا، هرول (شبل) هو الآخر كي يساعد (أصلان) في إنهاء حياة ذلك الشيطان بأقصى الطرق إيلامًا وهي شنقه بجنزير حديدي مهشم العظام مكسور النفس ذليلًا.

نجحوا في رفعة عن الأرض لمترين ثمَّ وقفا ينظرون إليه يحاول أن يحرر نفسه من دون جدوى ثمَّ خارت قواه وتشنج جسده وأخذ يقلب عينينه ذهابًا وإيابًا بين الاثنين متوسلًا لهم وراجيًا إياهم أن يخلصاه، لظات قليلة مرت كساعات طويلة عليه حتَّى غادرت روحة السوداء جسده المظلم الذي ظل معلقًا في الهواء ينظر إلى الفراغ.

جلس الاثنين أرضًا وقد تنفس كلا منهم نسمات أراحت صدورهم واطفأت نارها، نظر (يوسف) إلى (شبل) ثمَّ قال:

- أنا عايز أشكرك، أنت لحقتني قبل ما أموت، أنت مين؟

حاول (شبل) التهرب من الاجابة ثمَّ قال:

- لو قلتلك هتسامحني؟

تعجب (يوسف) من ذلك القول ثمَّ قال:

- أسامحك!!! أنا أعرفك؟ أنا مش فاكر إني شوفتك قبل كده وحتَّى لو كنت أذتني، أنا مسامحك كفاية إنك خلتني أخد بطاري منه، ده السبب في كل مصايبي هو السبب في خطف بنتي وموت أعز أصحابي بِشر.

حاول (شبل) أن يظل صامتًا لكنه قرر التحدث وقال:

- أصلان أنا اللي خطفت مريم، بس والله مسلمتهاش للميت وبسبب ده قتل مراتي وابني كريم، وكان السبب إني مش لاقي آدم اللي فاضلي من الدنيا، ربنا خلص حقك يا أصلان، سامحني.

اِنفعل (يوسف) لكنه سرعان ما تذكر أنه بعد كل ذلك العناء وجد ابنته (مريم) سالمه، فقال:

- مسامحك، ويا رب تلاقي آدم زي ما أنا لقيت مريم.

تهللت أسارير (شبل) وظهرت على وجه معالم السعادة وقال:

- طمن قلبي، وشيلت من عليا حمل كبير.

أنهى كلماته وأخرج صورة تخص (آدم) قبلها وقبل أن يعيدها إلى جيبه أمسك بها (يوسف) وقال:

- مين ده؟ ده آدم!!!.

تعجب (شبل) ونظر إلى وجه (يوسف) وقال بلهفة:

- أيوه، أنت تعرفه؟ شوفته؟؟؟ رد عليا؟

اِبتسم (يوسف) وقال:

- تعالى معايا أنا عارف هو فين؟

أمسك (شبل) بملابس (يوسف) وقال:

- بجد؟ بجد يا أصلان.

كاد أن يشت عقله فقال له:

- أيوه، والله عارف هو فين وهوديك ليه بس الأول في حاجة لازم أعملها.

وقف (يوسف) وتحرك في اِتجاه السلالم التي تقود إلى أعلى حيث الغرفة التي يعلم كيف يفتحها ويعلم طريق الخزينة بداخلها، دقائق وعاد يحمل صندوق به الكثير من الملفات والفلاشات والميموري كارد، هبط السلالم ووضع الصندوق أسفل قدم (حمزة) المتدلية، يبحث بداخل جيبه عن هاتفة الجوال، يعيد تشغيله ثمَّ يبحث عن رقم الضابط (هشام) يجري مكالمة وينتظر الإجابة وعندما يجيب يقول:

- هشام باشا، اِسمعني كويس عشان مفيش وقت، أنا عملت اللي عليا واللي جاي كله عليك.

***

داخل مكتب (أكمل) الذي يجلس خلف مكتبة يدخن سيجار كوبي وتظهر على وجه معالم الغضب جلية، ينظر إلى (وجيه) غالي الجالس على الطرف الآخر من مكتبة وهو شارد الذهن ومن أمامه (مروان) الذي يحرك يده بتوتر ويحكها ببعضها البعض باستمرار.

طرق (أكمل) بيده على المكتب وقال بصوتٍ مرتفع:

- كلنا هنضحي، هنضحي عشان نفضل في مراكزنا، نفضل أقوياء، أنا عارف إنها زي بنك يا وجيه، وعارف إنك متهبب وبتحبها يا مروان، أنا كمان بحب مرفت، بحبها أوي لدرجة إني فضلت مكمل معاها رغم إنها مبتخلفش ومفكرتش أتجوز عليها عشان مجرحش مشاعرها، بس بحب نفسي أكتر، فاهمين؟ إنتوا أكيد فاهمين إننا لازم نضحي، خدوا القرار دلوقتى حالًا، يا إحنا يا هما، إحنا حاولنا بتجنب ده وفشلنا، هو مستني تليفون مننا وجاهز ينفذ من غير ما نبقى طرف في الموضوع، شيطان.

رفع (وجيه غالي) رأسه إلى السقف متذكر صديق عمره (صلاح) ومتذكر وجه (نرمين) الملائكي وضحكتها التي تفرح قلبه ثمَّ أخذ قرارة وقال:

- نفذ.

اِبتسم (أكمل) ونظر إلى (مروان العويني) الذي بدى على وجه التأثر الكبير ثمَّ قال:

- هي اه حلوة وجامدة ومنكرش إني بحبها، بس باعت، نفذ.

أغمض (أكمل) عينه ثمَّ أمسك بهاتفه الجوال وأجرى اِتصال، فتح مكبر الصوت وانتظر الإجابة ثمَّ قال:

- نفذ، مرفت، نرمين، هند.

صدر صوت عبر مكبر الصوت معدل وقال:

- النص قبل التنفيذ والنص التاني بعد.

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض ثمَّ قال أكمل:

- اِتفقنا، هنبعتلك على نفس الحساب، اه وفي طلب كمان، مديح، أكيد تعرف أنا بتكلم عن مين، الشيطان بيعرف كل حاجة ولا إيه؟

صدر صوت من جديد:

- هيتمسح كل تاريخه وهيتطع كل ملفاته من السجلات وهيبقى إنسان جديد باسم جديد، أنا هتصرف.

أنهى كلماته الاخيرة ثمَّ أغلق الخط، أخذ (أكمل) نفس عميق ثمَّ قال:

- مبروك، البقاء لله.

ثمَّ صمت وصمتوا جميعًا.

***

الشارع أصبح أكثر ظلامًا وأقل بهجة من بعد رحيل الاثنين عنها (زوجها وابنتها) دموعها تتساقط كلما تذكرتهما، الأيام متشابهة للغاية والألم لا يزول والجراح لا تداوي، الجميع يطلب منها المُضي قدمًا ويتناسون ما أصابها، يتناسون عمدًا جراحها وآلامها، يطلبون منها أن توئد قلبها بيدها، النظر من الشرفة أصبح أبهت لونًا من ذي قبل، أحست بيد تمتد لتمسح على كتفيها فنظرت لتجد أبيها ينظر لها بحزنٍ ومواساة، مسحت دموعها وحاولت الابتسام ففشلت، جلس أمامها وقال:

- الحياة يتمشي لقدام يا بنتي، لازم تمشي معاها وتنسى الماضي، الابتلاء على قدر الإيمان، اصبري وكملي، لو مش عشان خاطرك يبقى عشان خاطر أبوكِ اللي محلتوش غيرك.

أومأت برأسها في هدوء ثمَّ قالت:

- أنا هبقى كويسة يا بابا متقلقش.

اِبتسم اِبتسامة مصطنعة وقال:

- سيد مستني مني الرد، كلمني تاني إمبارح بالليل، قلتي إيه بنتي؟ ده حالف يحبسني، سيد جدع وأنتوا متربين مع بعض، يرضيكِ أبوكِ يتحبس؟

دمعت عيناها من جديد ثمَّ قالت بقهر:

- قله إني موافقة يا بابا، أنا هتجوزوا عشانك.

اِرتسمت بسمة على وجهه وقال:

- ألف مبروك يا ابنتي، ألف مبروك، اللهم لك الحمد.

ثمَّ هرول إلى داخل الشقة كي يتصل ب(سيد) ويخبرة أن يحدد ميعاد الزفاف تاركًا دموعها تتساقط كقطرات المطر الحزين فوق مدينة بائسة لا تنبت أرضها بعد كارثة ما ألمت بها.

***

صوت طرق على الباب يتعالى، تتحرك (لبنى) بهدوء إلى الباب وتنظر عبر (العين السحرية) لتجد (يوسف) يقف وبجانبه شخص آخر يبدو عليهم الإرهاق الشديد، تفتح وتنظر إلى (يوسف) لتجد على وجه بعض آثار الضرب، تحاول أن تستفسر عمَّا حدث أو عن الشخص الآخر الذي بجانبه فيقول:

- أنا كويس، وده شبل، أبو آدم.

تنظر إلى الاثنين بتعجب ثمَّ تسمح لهم بالدخول، بعض مرور وقت قصير كان (شبل) يحمل اِبنه (آدم) الذي لم يكنْ مصدقًا لوجود أبيه معه من جديد، طلب (شبل) أن يغادر بعد أن شكر (لبنى) وطلب من (يوسف) أن يسامحة مرة أخرى، قبل (مريم) وتركها تودع (آدم)، احتضنته بقوة ثمَّ قبلته وودعته.

الإعياء والألم يبدو شديدًا على (يوسف) الذي أراد المغادرة هو الآخر لكن ألحت عليه (لبنى) أن يظل بعض الأيام كي يتعافي ثمَّ يمكنه بعد ذلك أن يرحل ويعيد (مريم) إلى والدتها الحقيقية وكانت تريد بالطلب ذلك أن تتاح لها الفرصة بالاحتفاظ بها لبعض الوقت، وافق (يوسف) وتفهم الأمر جيدًا.

***

داخل منزل قديم بأحد الأحياء الشعبية هناك صوت هاتف يتعالى بجانب (مديح) الذي يغط بالنوم العميق، يفيق على صوت هاتفه، ينظر إلى الرقم المتصل ليجدة غير معلوم، يتردد في الإجابة ثمَّ يجيب مضطرًا قائلًا:

- ألو، ألو.

لم يجيبه أحد، أوشك على إغلاق المكاملة بعد أن ظهرت معالم الخوف على وجه ليجد صوت معدلًا قادمًا إليه عبر سماعة الهاتف قائلًا:

- وشك مخطوف ليه، أمال إيه دجال وعفاريت وشياطين؟

يفزع (مديح) ويعتدل ثمَّ يقف وينظر من شباك غرفة نومه ليجد أحدهم يقف في المبنى المهجور المقابل له يرتدي السواد فيفزع أكثر ليجد الصوت يعود من جديد:

- اِهدى متخفش، أنا عارف إنك أول مرة تشوف شيطان بجد، اِسمع اللي هقولك عليه كويس ونفذه بالحرف، ماشي يا بلال.

يتلعثمَّ (مديح) في الكلمات ويقول:

- بلال، بلال، مين أنا اِسمي مديح.

يستمع إلى صوته من جديد:

- كان مديح ومن بعد الساعة 12 بقى بلال، الساعة دلوقتي عدت 12،

ينظر (مديح) إلى الساعة المعلقة على الحائط فيجدها تخطت بالفعل ال12، يعود بنظره إلى ذلك المنزل المهجور فلم يجد أحد، يبتلع ريقه بخوف ويستمع إلى الصوت من جديد فيقول:

- هبعتلك رسالة فيها رقم حد، كلمه هيبلغك بمكان تتقابل معاه فيه، فاهمني يا بلال؟ واستنى من مكالمة تانية، إحنا داخلين على لعبة كبيرة كلها قتل وأنت هتشارك فيها، هي بيحبها الشيطان، طريقة للقتل اِخترعها الشيطان، سميها لعبة الشيطان بقى أو شريعة القتل اللي حطها الشيطان أو تقدر تسميها سفر القتل، خليك جاهز.

اِنتهت المكالمة وجلس (مديح) أعلى الفراش في حالة من الخوف وعدم الاستيعاب لما هو مقبل عليه فيبدو أن الشيطان اِختاره كي يكون ضمن فريقه.

***

رغم برودة الطقس وشدة الرياح كان قلبه دافئ للمرة الأولى من فترة كبيرة، يدها الصغيرة باتت الآن بين يده كما عهدها من قبل وتمناها أن تعود لأيام، نظرتها الحانية الشغوفة به راها من جديد بعد أن حاول الجميع إقناعه بأن الأمر قد اِنتهى، قبلتها البريئة قط طبعت على جبينه من جديد، اِمتلك العالم الآن وهدأت أفكاره واستقرت روحه بين ضلوعه من جديد، ظلت تداعب وجه بيدها ثمَّ قالت:

- بابا، هو ليه حصل كل ده؟

سؤالها كان يكبرها سنًّا أو أن تلك التجربة القاسية جعلتها تنضج قبل أوانها، لم يكنْ سؤالها صدفة ولم تكن إجاباته السابقة تكفي للرد فقال:

- قدر، نصيب، اختبار، كل دول، ربنا ليه كمه في كده، حب ويريني الحقيقة كاملة، حقيقة كل الناس ووشوشهم من غير أقنعة.

احتضنته بقوة ثمَّ قالت وهي تهمس في أذنه:

- فهمت، متخفش ربنا مبيعملش حاجة وحشة، اطمن.

قالت تلك الكلمات ثمَّ غلبها النعاس على كتف أبيها، احتضنها برفق ثمَّ حملها وسار بها محاولًا أن يكون برفقتها أكثر وقت ممكنًا، النهاية دائمًا ما تكون صادمة، لا يهم فليمتلئ من روحها ويحدث ما يحدث بعد ذلك.

***

مصنع مهجور يقبع ساكنًا وسط صحراء موحشة، الليل يلقي بظلامه فوق كل شيء ويحيل النفوس إلى كائنات ضعيفة خائفة في تربص قاتل، يتقدم الضابط (هشام) في تأهب إلى داخل المصنع، ممسك بسلاح ناري بيده اليمنى وفي اليد الأخرى كشاف يحاول اِختراق تلك الكتلة السوداء في الداخل، خطوات بطيئة متتالية منه ليجد نفسه أسفل حذائين متدلي جسد صاحبهما من سقف ذلك

المصنع، يرتعد ويوجه كشافه إلى أعلى ليجد جثمَّان أحدهم قد تمَّ شنقه بجنزير حديدي التف حول عنقه محطمًا عظامه في قسوة، عينان حمروان ككاسات الدم ووجه أزرق متحجر كانا مؤشران واضحان على شدة ما عاناه قبل مفارقة روحه التعيسة الحياة من بين ضلوعه المهشمة، تحرك خطوة أخرى للأمام ليتعثر في صندوق خشبي موضوع على الأرض وقد كتب عليه بخط كبير متعرج (الشياطين الحقيقين جوه الصندوق ده، إنما المتعلق ده كان حد من أتباعهم، وخليك عارف إن المهمة مش سهلة، هشام باشا أنا عملت اللي عليا، متخليش دمي يروح هدر).

جلس الضابط (هشام) أرضا بجانب الصناديق يفكر فيما هو مقبل عليه وهو ينظر إلى ذلك الصندوق الضخم بخوفٍ وتعجب.

الفصل الأخير

"الحياة أبدًا لم تكنْ عادلة إنما الموت أكثر عدالة؛ لأنه يساوي بين الجميع".

"الكل يولد باكيًا والقليل يرحل فرحًا".

"المعادلة غير صحيحة منذ البداية والقوانين تحطم وتكذب بمرور الوقت".

"في آخر سطر من رسالتك تقرأ حتمًا كلمة الرحيل وليس النهاية فالرحيل بداية لشيء آخر".

الأضواء ممتدة على طول الشارع من الجانبين، الأصوات تتعالى بالأغاني الشعبية، الكثير من الحضور يجلسون داخل الفرح والبعض يتراقص أعلى الجزء المرتفع الذي يجلس فوقه العريس وعروسته، يقترب (عبد المجيد السيد) من اِبنته (نور) ويقبلها وهي ترتدي البياض وتجلس بجانب (سيد الخولي) الذي يبدو عليه السعادة العارمة، يقف ويتراقص ويشير إلى الجميع.

وفي كل تلك الجلبة والصوت المرتفع الذي تصدرة تلك السماعات العملاقة تجلس بين الحضور(ملك) تنظر مباشرة إلى عينين (نور) التي تلمؤهما الحزن، تتذكر حبيبها (يوسف) وتتذكر كيف كانت ليلة زفافهما، تنظر إلى عريسها الجديد (سيد) الذي كان يتراقص من قبل في زفافها السابق، كيف آلت الأمور إلى هذا؟ أين حبيبها؟ لم فعلت به وبنفسها هكذا؟ كيف أطاعت والدها الغارق بديونه وخالفت قلبها المُتيم. ب(أصلان)، تذكرت (مريم) فخانتها دمعه سرعان ما أخفتها، رفعت رأسها إلى السماء في متسائلة، دق قلبها بقوة وشعرت برعشة تجتاح جسدها، اِنتبهت إلى عين (ملك) المعاتبة لها في تساؤل حارق، كيف خنتي حبيبك؟ كيف ساويتي بين الذهب والتراب؟ كيف تناسيتي كل ما مَضى؟ تجمدت الدماء في عروقها وخفق قلبها من جديد بعد أن رأت (أصلان) عن مدخل الشارع، وقفت متصلبة الجسد وعلى ملامحها كل الخوف وعدم التصديق، أنه يحمل بين زراعية (مريم) متشبثة به بكل ما تملكه من قوة، لكم اِشتاقت أن ترى ذلك المشهد

من مرة أخرى، انتبه الجميع لمنظرها الغريب وأداروا رؤسهم واحد تلو الآخر في الاتجاه الذي تنظر إليه، توقفت الأنغام وعم الصمت المكان، وضع (عبد الحميد) أبوها يده على وجه في ندم، نظرت (نور) إليه ثمَّ إلى (سيد) الذي ظهر الخوف على وجه ثمَّ سرعان من المكان.

تقدم (أصلان) خطوات إلى الأمام مجتازًا الجميع في طريقة إلى (نور) التي تحركت في اِتجاههم فوقعت من ارتفاع كبير، وقفت ونظرت إلى ما ترتديه، شعرت أنها عارية أمام (يوسف) وأما الجميع، شعرت بالندم والخزي، شعرت أنها طعنت حبيبها بعد أن ذبحت اِبنتها بنفس السكين، بكت قهرًا وفرحًا، تلاقت عينيها بعين (أصلان) المتحجرة تأبى البكاء فعلمت أنه اِنتزعها من مكانها المعتاد وألقى بها بعيدًا وأنه هنا من أجل عهد قد قطعه لها مسبقًا وها هو يفي كعادته، وهي من خانت، قبل (مريم) ومسح على رأسها وأعطاها إليها، حملتها واحتضنتها بشوق، قبلتها وهي تبكي وتمسح على كل جسدها.

تراجع (يوسف) خطوات للخلف وبحث عن (ملك) في كل الوجوه حتَّى رأها، اِبتسم لها متأخرًا، أراد أن يخبرها أنه كان مخطئًا منذ زمن، ترك بيضاء القلب ليرتمي في أحضان متمردة لكنه حكم القلب والقدر، دمعت عيناه فبكت، أرادت أن تحتضنه لكن بينهم ألف سور مرتفع، ظهر (الخولي) من جديد ومن خلفه (الجريدلي) بقوة كبيرة من العساكر وأمناء الشرطة، نظر (يوسف) إلى صديق عمره فوجد شيطان كاره لوجوده، اِبتسم له مسامحًا، تحرك في اِتجاه ابنته واختفى الجميع من حوله قبل رأسها بقوة وضمها إليه مرة أخيرة فقالت له:

- بحبك يا بابا.

انهمرت دموعه سيول مندفعة، توقف الزمن للحظات، مررت يدها على وجه

لتسمح الدموع ثمَّ اِبتسمت له مرة أخيرة كانت كافية له، أمسك به (الجريدلي) واجتره إلى إحدى سيارات الشرطة، انتهى الأمر ورحل الجميع ولم يتبقَ إلَّا صديق خائن وزوجة نادمة وحبيبة تحترق وابنة تبكي.

***

رسائل متتالية تصل إلى (أكمل) الجالس خلف مكتبة في تأهب ثمَّ إلى (وجيه) المميك بكأس يترجع منه وأخيراً إلى (مروان) الذي ينظر من شرفة المكتب الفخم، رسائل كان مضمنوها وصول مبلغ ضخم لكل واحد منه إلى حسابة البنكي بعد أن تمَّ الانتهاء من صفقة كبيرة تخص المخدرات.

اِرتفعت ضحكاتهم وتحرك (وجيه) باتجاه البار وأحضر زجاجة (شمبانيا) ثمَّ فتحها وأخذ يصب في كؤسهم، اِرتطمت الكؤس ببعضها البعض وسط نشوة كبيرة من ثلاثتهم، الأمر أشبه بشيطان نجح في مخططة ثمَّ وقف بعيدًا يشاهد العالم يحترق وهويحتفل مع أتباعه.

***

سيارة تقف في طريق معزول عن العمران، يجلس بداخلها (عدنان) يردد كلمات أغنية غربية يندمج معها بصوت عالي، ينتفض من مكانه عندما يجد (مديح) يقف بجانب زجاج السيارة ينظر له في ثبات، يفتح الباب ويهبط من سيارته بعد أن يخفض صوت الأغاني وبيدة مظروف وهويقول:

- يا عم وقعت قلبي، أنت واقف هنا من امتى؟

يبتسم (مديح) ويقول:

- أنا هنا من قبل ما توصل بس كنت سايبك براحتك.

يبتسم (عدنان) ويمد يده بالظرف إلى (مديح) الذي يمسكه بتعجب فيقول:

- إيه ده؟

يمسح (عدنان) على رأسه ويقول:

- الظرف ده من الشيطان نفسه، أنا الحقيقة معرفش في إيه ومليش إني أسأل، أنا بنفذ اللي بيطلب مني، سلام.

يركب سيارته يغادر تاركًا (مديح) يقف في طريق مظلم وحيدًا، أخرج هاتفة الجوال وأضاء الكشاف ثمَّ فتح المظروف فوجد بطاقة شخصية جديدة تحمل صورة لكنها تحمل اِسم جديد (بلال أسعد التهامي)، ووجد معها شيك بمبلغ مالي وورقة مكتوب بداخلها (أنت من النهارده اِسمك الشيخ بلال مش مديح، ملفك القديم اتحرق، أنت واحد جديد، الفلوس دي عشان تستعد بيها للي جاي، استنى مني مكالمة هشرحلك فيها دورك ومتحاولش تلعب مع الشيطان).

أنهى قراءة الورقة وابتسم وقال بصوتٍ مسموع:

- قال شيطان، دي لعبتنا إحنا.

سمع صوت خطوات بجانبه فوجه ضوء كشاف الهاتف في الاتجاه الذي سمع به الصوت فلم يجدْ شيئًا، سمع الصوت يلتف حوله، أصابة الذعر، يسمع خطوات ولا يرى أحد، ثمَّ اِختفى الصوت، اِبتلع ريقة وقال في سرة:

- يا ترى أنت مين وعايز مني إيه؟

***

ممر طويل يقود إلى المشنقة وهناك ضابطين ممسكين ب(أصلان) الذي يرتدي الأحمر يقودانه إلى مصيرة المحتم، لم تتمكن العدالة من رؤية الحقيقة لأنها عمياء ولم تحاول أن تستمع إليه لأنها صماء وقد صدر الحكم بإعدام بريء آخر، يبدو أن العدالة غائبة عن سماء عالمنا، فور أن رأى المشنقة سرت رعشة بجسدة لم يتحكم

بها، خارت قواه وتوقفت الدماء عن تغذية أوصاله، حملوه رغًما عنه حتَّى وصلا به إلى أول درجة سلم، نطقا بالحكم أمامه فلم يستمعْ، لقناه حجته فوافقهم غير عابئ، صعدا به إلى أعلى ثمَّ أحكموا تقيد يداه، اِشتم رائحة أمه، تعجب لكنه شعر بوجودها، بحث عنها بين الحضور فوجدها بينهم تبتسم له، اِبتسم لها اشتياقًا، اتسعت بسمة عندما رأى مريم تمسك بيدها وتلوح له، نسى ما هو مقبل عليه وشعر بفرحة لا بخوف، السكينة تجتاح كل خلاياه، أرسلوا له قبله فتلقاها بقلبه، أغمض عينه سعيدًا بعد أن وضع الستار الأسود على رأسه، وفي لحظات قليلة انتهى الأمر وانتهت رسالة (أصلان).

***

داخل غرفة قليلة الإضاءة يجلس (هشام) على مكتب أبيه الذي كان يكتب عليه مقالاته الصحفية، وضع فوق المكتب الصندوق الذي أتى به من المصنع وبدأ في إفراغ محتوياته، الكثير من الملفات التي تدين عدد كبير من رجال الأعمال وأعوانهم، فلاشات تحوي تسجيلات صوتية وفيديوهات تدين الجميع، أنه مستنقع فساد ممتلئ، تذكر (أصلان) وتذكر أنه دفع ثمَّن أخطاء لم يرتكبها مثله مثل والده الذي لقى حتفه عندما اِصطدم بالكبار، جلس كثير يفكر من أين بدأ حتَّى توصل إلى الحل الوحيد، القانون ناقص طوال الوقت مليء بالثغرات والعدالة عهدها عمياء لذلك لا بد من تدخل طرف جديد يعلم قوانين اللعبة.

أحضر لوحة كبيرة الحجم وبدأ في كتابة الأسماء التي تمصل أهداف يأمل في تحقيقها، الأسماء كثيرة والطريق طويل للغاية والبقاء للنور لا للظلام.

***

منزل الرائد (أحمد خالد الشريف) الذي يفيق من نومه على كابوس، يجلس فوق فراشه في خوف، يتنفس بسرعة وهو يتذكر تفاصيل الكابوس، ينظر إلى زوجته النائمة بجوارة على الفراش يقبلها في ود، ينظر إلى الساعة ليجدها تخطت الخامسة فجرًا، يقف ويتجه إلى دورة المياه، يخلع ثيابه ويقف أسفل المياه الدافئة التي تنساب فوق رأسه وسائر أنحاء جسده فتشعره بالاسترخاء.

بعد عدة دقائق يغلق تدفق المياه ويتجه إلى المنشفه، يلفها حول جسده ويقف أمام المرآة يمسح البخار الملتص بها، تظهر ملامح وجه مختلفة للغاية، عيناه سوداء بالكامل وأسنانه تبرز من داخل فمه وهناك شيء أعلى رأسه طقرني صغيرين، يقترب بوجه أكثر متمعنًا في ملامحه المخيفه ثمَّ سرعان ما تعود ملامحه إلى طبيعتها، يبتسم ويختفي داخل البخار الكثيف.

****

جسد ضخم يدخل إلى غرفة مظلمة ويغلق خلفه، صوت أنفاسه عالي للغاية كثور يتنفس بقوة، اِقترب من مكتب موضوع فوقة 6 صور تعود إلى نساء في أعمار مختلفه يمسك بأحد الصور ويتفحصها جيدًا ثمَّ يعلقها على لوحة فوق المكتب، يقترب عدة كتب سوداء مكتوب عليها بخط واضح (سفر القتل) يسحب واحدًا ويختفي داخل ظلام الغرفة لكن أنفاسه ما زالت مسموعة.

****

"يبدو أن العدالة العجوز تأبى أن تعترف بقدرتها على البصر وأن تعترف إن ميزانها به خلل ما عليها إصلاحه".

"تمت"

القاهرة

14 /11 /2019

كلمة أخيرة

خلقنا لسبب واحد وأقدار مختلفة، خلقنا مكملين لأقدار بعضنا البعض، القدر ماهر جدًا في صناعة الحكايات والقصص، يبهرك بحبكاته ومقاصده، بارع للغاية في إنفاذ مشيئته رغمًا عنك، لا يعبأ بألمك أو فرحك، أنت بالنسبة له صفحة في كتاب غير محدد الصفحات ليس أكثر، لكن هناك صفحات مضيئة لامعة تتوقف عندها الأعين، تظل عالقة في الأذهان سنوات أو ساعات أو حتَّى دقائق لا يهم، وعلى النقيض هناك صفحات سوداء باهتة يصعب قرائتها ولا سبب لوجودها لكنه كتاب القدر يجب أن يضم الجميع، المضيئ والمظلم، الجيد والسيئ، النافع والضار، الحقيقي والمزيف، البعض يخلق وحيدًا وينتهي وحيدًا وآخرون يعيشون حياة صاخبة داخل عقولهم وخارجها لكن الجميع يميل إلى الانعزال في النهاية فهذه فطرتنا جميعًا، البداية وحيدًا والانتهاء وحيدًا قدرًا كتب على الجميع، الحياة تغرقنا جميعا بهمومها وأحلامها وتنسينا سيرتنا التي ستدوم أكثر من أعمارنا، تذكر أنك لم تخلق هباءًا ولست مكملًا إنما رسولًا برسالة لم يحملها غيرك ولن يكملها غيرك ولكل رسالته سيكملها للنهاية شاء أم أَبَى، أحاول جاهدًا تذكر الأوجه التي رأيتها طوال سنوات حياتي فلا أتذكر الكثير لكنني أتذكر المواقف وهكذا سيتذكروننا، ما زال قلم القدر يدون وما زالت تملك/ي عدد محدود من الساعات، ما زالت الشمس تشرق والسماء تمطر والأرض ثابتة، ما زالت صفحتك لم تطوِ بعد، اجعلها مضيئة قدر الإمكان، اجعلها تستحق القراءة بل وتعاد قرائتها مع الزمن، اجعل القدر ينتبه لوجودك حتَّى لو للحظة واحدة، يكفيك لحظة واحدة مضيئة في كتاب القدر، يكفيك اِبتسامة واحدة على محيا أحدهم عند تذكرك، يكفيك حياة واحدة لفعل كل ما تريد.

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007